كتاب اليوم

أنيس منصور

بلاد الله.. خلق الله

:: سهر الليالي :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

أنيس منصور

بلاد الله لخلق الله

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

رئيس التحرير
حسين فهمي

مدير التحرير
مصطفى طيبة

سكرتير التحرير
جلال عارف

مطابع الأخبار

.. سهر الليل . ليلاس ..
www lilas com/vb3

الى أي مكان ..

في نهاية الليلة ٤٢٥ من الف ليلة وليلة تحدثت شهر زاد الى الملك شهريار عن رجل حمال اسمه السندباد الحمال . وانه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل الى اي مكان .. وانتقل من بيته الى بيت آخر لايبعد كثيرا عنه . . ووضع السلة التي يحملها على كتفه فوق مصطبة . . ثم جلس . واحس ان نسيما عليلا ونسيما جميلا يخرج من فتحة الباب . . فاتجه الى الباب نافذة وشعر بالسعادة . . وادرك شهر زاد الصباح .

وشهر زاد لم تكمل القصة لانها — كعادتها — تريد ان تظل شهريار ملهوفا على القصة الجديدة . . وبذلك تطيل عمرها ليلة بعد ليلة ..

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر .. فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر . . وهذا يكفي مكافأة على انه انتقل من مكان الى مكان .. او فكر في ان يترك الارض التي ضاق بها .. او البيت الذي مل الاقامة فيه .. انني ارى ان هذه الليلة التي لم يكملها شهر زاد قد كملت . . فالرجل انتقل . وجلس ونسم الهواء والرائحة . . وهذا يكفي !

وفي كل مرة ينتقل سندباد من مكان الى مكان يلقى المكافأة السخية على ذلك .. مهما كانت محنته أو مصيبته فهي لذيذة .. ويبدو ان سندباد لم يكن يتعجب كثيرا ، كأنه يعلم انه ممثل

في قصة .. او بطل مسرحية .. فكل مايعمله هو يمثل في تمثيل .. وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقي بكل ماهو جديد .. محروم من الخوف الخفي .. والعذاب احي .. وهو يرى ان كل جديد بلاء .. وان كل مغامرة كارثة .. وعلى الرغم من انه «يمثل» في الف ليلة وليلة ، فانه يريد ان يفرغ منها .. تماما كما لو كان مغامرا حقيقيا يعذب كثيرا ويشد الراحة بعد ذلك !

اني لا احسد سندباد ..

فهو لم يستمتع بالتجربة الاولى .. والمفاجأة الاولى ..

والفزع الذي لاقرار له .. والحيرة التي لاحدود لها .. ولا احسده ايضا .. لقد تمنيت ان يطول كل شيء .. فلا شيء ينتهي .. ولم يكن يعذبني في رحلاتي الكثيرة الا التعب .. الذي يجعلني عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة .. ولو كانت لي قوة سندباد وعضلاته وشهيته المفتوحة الى الطعام وقدرته العجيبة على ان ينام في أي مكان وفي اي وقت لشربت مياه المحيط .. لكي اعبره بعد ذلك ماشيا على قدمي .. ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكي اتمشى على مهلي من دولة الى دولة ..

انه لم يتعذب .. ولم يسعد بالراحة بعد العذاب .. انه لم يعش ، وانما كان يمثل دورا في الحياة .

ولم يعجبني من كل مذكرات « ماركو بولو » التي املاها في سجنه في مدينة جنوة في نهاية القرن الثالث عشر الا هذه العبارة .. « وعندما عاد ابي وعمي من الصين . كانت امي قد ماتت . وكنت وحدي في البيت وقد بلغت العشرين . وسألني ابي : هل تجيء معنا .. وكنت انتظر هذا السؤال ..

وقد اعددت له اجابة مركزة : نعم — وأشار أبي وعمي الى أن استعد . وكنت قد اعددت كل شيء . وفي اليوم التالي اتجهت الى الصين . ولم استطع ان اصارح ابي بأني قد بعت معظم ملابسي .. من شدة الفرحة .. فارتديت ملابس والدي وعمي .. وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات .. فقد كنت احلم بما يحلمان به واروي لنفسي مغامراتهما .. لقد عشت حياتهما دون ان يعرفا ذلك .. فلم يبق الا ملابسهما ايضا .. وارتديتها .. »

واشهد لي بعرف اشتهواه تلك الجملة التي اعجبتني واضحكتني وعزتني والصقت في نفسي وجعلتها برنامجا لكل رحلة .. والذي اعجبني من كل صفحات ماركو بولو .. انه نسي ملابسه .. ولم يحمل معه شيئا منها ..

فهذا بالضبط ما افعله بحكم العادة ..

ولا انسى يوم سافرت لاول مرة الى ايطاليا .. ووقفت في المطار اتجهت الى موظفي الجمرك وكان بعضهم من تلامذتي في الجامعة .. وطال الكلام وطال .. وسألني واحد منهم

واين حقائبك ؟

قلت : لماذا ؟

قال : لكي تجيء بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

وصرخ الرجل : معقول هذا ؟!

قلت : فقط هذه الحقيبة ..

وقد ظل الرجل يحدثني طويلا ظنا منه ان حقائبي لم تحضر بعد .. ولم تكن غير حقيبة واحدة بها قميص

وبنطلون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب .. لكي أمضي شهرا في ايطاليا !

ومرة أخرى لكي أؤكد لاصدقائي الذين أحسوا انني سوف أسافر بعيدا ، حملت حقيبتي الصغيرة معي .. وسألوني : أين أنت مسافر الى الاسكندرية .

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون ان الحقيبة صغيرة . وان الملابس التي بها قليلة .. ولم أكن مسافرا الى الاسكندرية وانما كنت مسافرا الى الهند ومنها الى استراليا .. الى اليابان وامريكا .. واكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فانا اضيق بان يعرف احد موعد سفري فيصر الى ان يرهق نفسه بتوديعي .. كما انني اضيق بالوداع .. واضيق بالاستقبال ايضا .. ولا ارى لذلك مبررا .. ولا اعرف ما الذي يقال او ما الذي اقوله ذهابا وايابا ..

او كأنني لا اصدق انني سوف اسافر .. فاذا لم امكن من السفر ، فلا احد قد عرف ذلك .. مع انه لم يحدث مرة واحدة ان اعتزمت السفر ولم اسافر .. ولكنه خوف قديم ثابت ليس له ما يبرره غير ان له تاريخا في طفولتي .. ولم افلح في التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد .. ولا أظنني قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتي في مطار فرانكفورت ..

ولا اعرف كيف ضاعت .. واعتقد انني نسيتها في الطائرة .. فقد كانت حقيبة يد صغيرة .. وكان لابد ان أتخلف ليلة

في المانيا قبل سفري الى السويد .. وفي هذه الحقيبة كل ملابسي الضرورية .. وهي قليلة جدا .

وذهبت الى مكتب شركة الطيران . ووعدني الموظفون بالعثور على الشنطة في أسرع وقت . وارسلوا برقيات وانتظروا ..

وسألوا عن احتياجاتي الضرورية .. وعن محتويات الشنطة بالضبط . وقلت ـ وأنا كاذب مع الاسف ـ : بيجاما صوف وملابس داخلية .. ومناديل وجوارب وفوط وصابون وامواس حلاقة وعطور ومعجون اسنان ..

وبسرعة فوجئت بكل هذه الاشياء في غرفتي في الفندق ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتي الضائعة ..

وشعرت بالخجل مرة اخرى لانني تصورت ما الذي سوف يحدث عندما يجدون شنطتي الصغيرة وليس بها سوى بيجاما واحدة .. وقطعة واحدة من كل شيء وتمنيت الا يعثروا عليها ابدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة !

لقد وجدت الشنطة الملعونة في انتظاري .. وانا عندما كذبت كنت أتستر على فضيحة اخرى هي ان ملابسي قليلة لاتذكر ! ..

هكذا .. انا اذا سافرت لا احتاج الى اي وقت .. ولا لاي استعداد نفسي .. في اية لحظة استطيع أن أزرر الجاكتة

واقفل باب المكتب وانطلق الى المطار .. اما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج .. او يمكن غسلها في الفندق ..

وكل شيء بعد ذلك يهون . فالمهم ـ دائما ـ هو السفر . . هو الخروج . .

وليس السفر تغـــيرا لمكان المشي أو النوم أو الاكل . . وانما هو تغيير للموقف . . تغير للسمع . . جلاء للبصر . . تحديد للرؤية . .

وعندما سافرت الى اوروبا لاول مره لم يتسع وقتي لكي اخبر احدا من الناس . . فقد علمت بالسفر في الصباح . . وفي المساء كنت في المطار . . في الجو . . فوق البحر الابيض المتوسط . . ومن الطائرة رأيت مدينة الاسكندرية لاول مره . . فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . .

وعندما سافرت الى الكونغو قيل لي في التليفون : تسافر ؟

قلت : طبعا .

ـ ودون ان تعرف الى اين ؟

ـ لايهم . .

ـ اذن الى الكونغو . .

ـ حالا . .

ـ اتجه الى المطار . .

واتجهت الى المطار وفي يدي صحيفة « الاخبـــار » وقد لففت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . . ؟

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سافرت الى الخارج وانمـا اذا سافرت الى الاسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة في السفر . . في الانطلاق . . الصدق الوحيد الذي اشعر به هو

ملابسي التي لايمكن أن تفارقني . . ثم هذه السيارة او الطائرة التي لست ادري سرعة الضوء في الانتقال من شاطئ النيل الى شاطئ البحر .

وفي احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة . . ولمـا سألني موظف الاستعـــــلامات عن الشنطة . . ادركت انني نسيت الشنطة في القاهرة . . او نسيت ان اعدها . . فقلت له : حالا . .

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعت فيها ملابس اشتريتها وعدت الى الفندق . .

ولم اكد انهي دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لي امامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه . . !

وعرف موظف الاستـــعلامات انني اشتريت الشنطة وما بها . . ومشيت لحالي . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقي وراء هذا التصرف . . ولكن المعنى الحقيقي هو انني اذا قررت السفر فمعنى ذلك أن اسافر بنفسي . . بروحي . . عقلي . . اما هذه الاشياء الاخرى فتجيء في الدرجة الثانية وفي معظم الاحيان لاتجيء ؟

واجمل واصـــدق وصف لي هو ما قاله الاب الفيلسوف تايلار دي شاردان الذي كان استاذا للعلوم في القاهرة في كتابه الذي سجل به رحلاته الى بلاد الصين : انني اولد في هذه الرحلات . . انني أنظر وأنظر في جشع وشراسة . . هذا هو طعامي . . ثم انني اذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات . . ولكن من الضياء التي تتدفق في اعماقي » .

ويقول الاب دي شاردان . انها هذه النفس الغامضه . . انها « انا » . . هذه « الانا » الغامره . . الباحثه . . الانا التى تريد ان تذهب الى ابعد مكان في الدنيا . . الى اطراف كل شيء . . وكل انسان . . وكل فكره . . انها هذه الانا التي تريد ان ترى ابعد . . وتسمع أعمق . . انني اريد ان اعرف بصراحه وبايجاز ما الذي يكمن في أعماق هذا الاناء الانساني » . .

ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان الارض كرويه !

فهي تدور ونحن ندور . .

لاهي تهرب من تحت اقدامنا . . ولا نحن نهرب من فوقها . . وحتى عندما تنطلق بعيدا عنها فنظل متعودين اليها . . وعلى موعد معها . . لكي نسافر من جديد . . نسافر في البر او في البحر او في الهواء . . بلا حقائب . . فالحقائب لاتهم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا اهم من الحقائب . . نحمل الشوق الذي لايخمد الى كل ماهو جديد : في الارض وفي الناس . . وشيئا بين الناس . . في كل ارض . . وبين اي ناس . . فالارض لله . . والناس ايضا . . ولا فرق بين الناس هنا والناس في اي مكان . . فكل الناس ينشدون راحه البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعده ليهضموا الطعام . . ويعطيهم الطعام لتهضمه المعده . . ويعطيهم الحريه ليفعلوا بما لديهم ما يريدون . . وان يعطي الجميع سلاما في النفس وفي الحب وسلاما بين النفوس والعقول . .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله . .

وكل رحلة هي في بلاد الله وبين خلق الله !

أنيس منصور

كانت أقصر وأصعب رحله . .

وكانت أشدها حراره . .

وعمقا . . أيضا ! .

الكونغو .. بلا لومومبا

.. سهر الليل .. ليلاس ..
www lilas com/vb3

..وقفزت إلى السرير !

ناحد الناس في مطار القاهرة وتلهفت في الاعتذار له فاصطدمت بواحد آخر .. وعندما صدمني شخص ثالث وجدت أن الغرض الذي يربح الانسان عن أن يقول لنفسه ان كل الناس نيام

ولم يكن هذا الغرض طالما مطار القاهرة مظلم والناس اشباح .. وبعض هذه الاشباح جنود .. وبعض الكلام باللغة الانجليزية ذات الحماقة المعروفة .. ولكن ليس هذا وقت ضبط الأحرف أو الألسنة وما أعرف كم من عدد الكلمات التي سمعتها انجليزي وكم أمريكاني ..

فالمهم هو أن أجد لي مكانا في الطائرة التي هناك .. والتي لا أراها بوضوح ولا أعرف أحدا من ركابها .. ولا أعرف ان كانت على استعداد لأن تقبل مسافرا مثلي أو شحنة بشرية متجهة الى الكويت .

وحاولت ان أتجه الى مصدر الضوء في المطار .. حاولت ان أختار شخصا أصطدم به لعلي أرغمه على أن يقبل اعتذاري .. ومع هذا الاعتذار أسأله الى أين نحن مسافرون ؟ وفي أية طائرة ..

وجاءة أضيء جانب من المطار

وظهرت الطائرات ضخمة لونها أسمر .. كأنها اشتعلت في السماء .. وانطفأت في آخر لحظة .. أو كأنها عندما احترقت سقطت عليها الامطار بعد ذلك . ولذلك تحتفظ هذه الطائرات بلون السحاب ولون الدخان .. وعلامات بيضاء هي امضاء الحريق على هذه اللوحة القاتمة .. ولاحظت أيضا ان كل الذين التفوا حول هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين الى الكويت - وهم جنود المظلات .. ولاحظت أيضا ان هناك سيارات اتجهت الى هذه الطائرة .. ثم الى داخل الطائرة .. وكانت هذه أول مرة

أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولابد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون - حتى - لا نعوق احساداهم التي اعتادت على المقاعد الخلفية ان تطلب .. ان يجلسوا على جنبيه .. والا ان يرجعوا مقاعدهم الى الوراء وينامو في هدوء .. أو يصطنعوا النوم .. حتى تجيء المضيفة وتقول لهم اصبحوا على خير .. واذا كنتم في حاجة الى أي شيء فلا تترددوا ! ..

ومن المألوف أن يتردد الانسان في طلب معظم الاشياء .. لأن من حق المضيفة أن تنام هي الاخرى في مثل هذه الساعة من الليل .

وفي هذا الظلام سمعت نداء أخرى .. واستمعت يدي والدهشة تسرعه حول الذراع الناعمة واتجهت أنا الى صاحبة الذراع وهي أين طائرتي بالضبط ..

فقالت المضيفة الانجليزية انت مطلوب في الاستعلامات ..

قلت أنا بالذات ..

قالت . نعم

ولم نمش طويلا ونحن تائهان في الظلام .. انما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكي أراها في النور أوضح وعلى مهل ..

وفي النور قابلني أحد رجال الجيش وسألني ان كنت أحد الصحفيين المسافرين الى الكويت .. وسألني عن بقية الزملاء .. وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألني أيضا أين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة « حكمدار » وأرى أن الموقف يقتضي ان أكون هذا الحكمدار . ووجدت الاجماع قد اختارني حكمدارا .. كلمة حكمدار عند العسكريين معناها « الشخص الذي يتلقى الأوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها » وعلى الرغم من أن عددنا أربعة .. فانه من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . واستثمرت فرصة تعييني حكمدارا واستدرت . وعرفت الضابط لهذه الفرصة ورفض أن يبلغنا الاوامر التي لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الاوامر .. ومستحيل أن نعرفها ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..

وفي آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له انه في استطاعته أن يكون حكمدارا . وفرح الضابط لهذا الضبط والربط .. وجاءت التعليمات صريحة تقول **ان أحدا ليس مسئولا عن سفرنا الى الكونغو .. وانه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون .**

وكان هذا القرار مثل سبب فلة حساوي قد انكسرت ونادانا قبل أن تتحرك الطائرة .. أو بعبارة أخرى في سبب داعيه .. وان نهار ابيض أن البلد قد تخلصت منا جميعا

وانتفضت هذه الامنية العالية ونظرت الى الطائرة وهي تقدف اللهب .. وتعلقت عيني بالمواد المتفجرة التي امتلأت بها الطائرة . ووجدت أن هذه الطائرة هي « الناهية » التي سوف تذهب بها وبعض ابنها .. وانه من الممكن أن يكون النهار أبيض الف مرة في لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة في الفضاء واستراحت البلاد منا .

وفي هذه اللحظة لم أكن أتصور انني عثرت على المقعد لهذه الفرحة . ولم أكن أتصور أن الخلاص منى يحتاج الى ثورة في الكونغو .. والى ارسال فوج من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسافر في ساعة متأخرة من الليل ولكن يظهر أن الانسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت معنى الحقيقة . وعرفت هذا القبر الطائر .. هذا الجحيم المطلق

وبسرعة تخلصت من أحمتي وقيمتي التي احتفظت بها منذ تركت مكتبي في « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار . وأحسست بشيء من الحمة .. وشيء من الغربة .. فالمطار أصبح بالنسبة لي منطقة انعدام الوزن والقيمة والاهمية .. وفي الظلام وبين الجنود وبين الاشباح اتجهت الى احدى الطائرات .. ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم .. ملابسهم صفراء . شباب سمر . على وجوههم الارهاق .. وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه .. وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتي فيها اشفاق وفيها وفاء .. وافسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة .. نعم على أرض الطائرة . فالطائرة لها أرض .. بل كل جدرانها أرض انها عارية تماما . جلد على عظم .. لا توجد بها قطعة خشب واحدة .. انها طائرة بلا موبيليا .. انها تذكرنا بأول طائرة ركبتها في حياتي سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوربا فقد كانت مثل الموريات ينقلون فيها الحيوانات

من شرق غربها الى غربها . كنا نجلس على رصيها .. ونمسك في حبل يمتد من مقدمها الى ذيلها . وعندما كانت تهتز .. نهتز أيضا كما يهتز حبل العصفور فوق السطوح .. ويتساقط منا العرق أيضا . وعندما حاول بعضنا ان يعترض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه في خدمتكم .

وعندما حاول بعضنا في تلك الاونة ان يكون ظريفا مع قائد الطائرة قال له : اسمع يا أسطى .. هذا الاتوبيس نمرة كام ..

كان رد الكابتن الاتوبيس ليست له نمرة ، ولكن الركاب لهم نمر على دماغهم .

اما هذه الطائرة الحربية فهي مختلفة تماما .. فلا يوجد بها حبال . ولا احشاب ولا أحد يعرف انها أسطى . ولا كمساري .. ولا زمر .. ولا اتجاه .

ولكن احد الضباط اشار الى ان اركب السيارة الجيب الموجودة في داخل الطائرة في هذه السيارة مقعد من الجلد تصور !

مقعد من الجلد في داخل سيارة في داخل طائرة انه نسبيه كرسيا درج من سالون حلاقة ووسع لي الرصيف .. فهو الكرسي الوحيد .. وهو مطمع كل الجنود الذين يتاكلوا على جدران الطائرة .

باحساسي بان هذا المقعد نعمة من عند الله اتجهت اليه بشيء من الامتنان .. وهذا الامتنان جعل الصدمة التي ضربت رأسي بعنف وأنا أدخل السيارة نوعا من اللمس الرقيق . او كانت هذه الصدمة بسبب الحسد . ثم حمدت الله عليها . فهي أهون بكثير جدا من الامنيات الرهيبة التي تتقبلها في المطار . فالمطلوب أن أروح على مسئوليتي . والا أجيء على مسئوليتي .. وأن أموت على مسئوليتي . فأنا الجاني والقتيل .. وأنا كالنار تأكل بعضي بعضي

ولمست بسرعة باب السيارة .. انه حديد خالص . ولمست الدريكسيون انه حديد المرودة .. وكذلك كل اجهزة السيارة .. كله في كله ..

أما ملابسي فهي نصف ملابسي . جاكتة من نصف قميصي . وتحته القميص نفسه قميصي . فالقميص مفتوح لان اضمني بالكرافته .. واضيق بالحزام . واضيق برباط الجزمة وجلده الساعة . ولو كان الامر بيدي لنزعت الزراير . وتحولت ملابسي كملابس

الاحرام .. ولكن في تلك اللحظة نميت في أحد مع الجنود اثره وفيلة لأسد كل هذه الفتحات .. فقد لاحظت أن هواء باردا يهب من تحت المقعد .. وتلمست سطوبى بوحدته سليما .. ولسبب لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمي .. ويتجه باحكام شديد الى أنفي .. وعطست .. وهذا طبيعي .. فأنا يكفيني جدا ان ألمس شيئا باردا لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم دائما ولكني ابحث عن فرصه .. وجاءت الفرصة الحديدية .. وعطست .. وانزكمت .. واستد على .. واستدت سماعة الطائرة .. واقفل احد الاشخاص باب الطائرة .. ودارت المحركات .. واستسلم كل الحاضرين .. فلا شيء يملكه الانسان في طائرة الا أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف ونظرنا النظر بعضنا الى بعض .. فليس هناك ما تراه في وجوه الآخرين الا صورة لا حجامى القلق والخوف وشيء من الذل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن نسميها .. الامل أو التوكل على الله .. مع شيء تافه اسمه .. الثقة بالنفس .

وبسبب هذا الاحساس العميق .. نظر كل الى احد .. ونرى في السقف متسعا للجميع .

ولا اعرف ان كانت محركات الطائرة التي لم ارها قوية جبارة .. أو ان محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يغرى بعدم وجود ايه طبقة عازلة من الخشب او من الزجاج او الصفر .. ان صوت الطائرة رهيب .. انها تأكل نفسها .. انها تزمجر .. انها تريد ان تتحرر من شيء .. من جاذبية الارض .. من الثقل .. من الظلام .. ان المحركات نفسها تريد ان تفلت من الطائرة .. ليتها تفعل ذلك .. فترغمني على اكمال الرحلة التي لم تبدأ قد ضعفت .. واية محاولة مني للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أي عذر .. فلا أستطيع أن أتظاهر بأني نسيت شنطتي او جواز سفرى .. أو ان سحنة هامة كانت بخاطرى ونسيت ان اودعها .. كل هذه الاعذار والاوهام قد تحطمت في رأسي بسبب البرد .. وكلها قد طحنتها المحركات وتحولت الى تراب يتطاير والتصق هو أيضا بالسقف ..

وتحركت الطائرة كما يتحرك لورى في طريق زراعى غير مرصوف .. يبدأ من القاهرة وينتهي في الكونغو في قلب أفريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين انا ذاهب .. ولا

كم طول المسافة .. ولا كم ساعة نقطعها .. ولا ما هو أول مطار .. ولا كم يوما سنبقى هناك .. لا شيء .. لا معلومات .. لا فلوس .. لا ملابس .. وكل ما عندى من معلومات هو هذا الحوار القصير الذي اعتز به وارددة كلحن جميل .. انه هذا الخبر المعنوي فيهو .

— هل ستسافر الى الكونغو

— نعم

— الآن ..

— فورا .

— انا كنت متأكد من ذلك !

— شكرا

انتهى الحوار .. ولكنه لم ينته في أذني .. انه يتردد مدويا كالاجراس في جلسة ... لا قطعه الا بالاستماع لهذه اللغة العالية ..

ولكن هذه اللغة العالية مثل موجز أسمعه على قلبي .. تحت جلدي .. آه لو كان يلتف حول جسمي من ناحية اليمين .. ناحية المصران الغليظ .

.. فقد اكتشفت في هذه اللحظة ان في الجانب الايمن من بطني يوجد كتكوت صغير .. كأنه في بيضة .. ومن الغريب ان الكتاكيت لا تخرج من البيض الا في الدفء .. ولكن هذا الكتكوت لا يخرج الا عندما يكون هناك برد شديد .. فالذي ارقص فيه الآن

وارتفعت الطائرة .. واختفت زمجرة المحركات قليلا .. ولكن الطائرة صحيحة .. وراسية في الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت لنفسي مطمئنا .. ومهدئا .

وكلما ارتفعت في الجو .. ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت .. كأننا كنا تحت خط الاستواء .. ثم اقتربنا .. وكان خط الاستواء يوجد في السماء

.. ثم تحولت الحرارة الشديدة الى هواء ساخن .. هواء من نار .. لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت ان الجنود الذين حولى .. بدأوا يفكون ازرار قمصانهم .. وشعرت بالارتياح .. فان هذا الهواء الساخن قد انقذني من زمهرير السيارة ..

ولكن رأسي اصطدم بالسيارة عندما خطرت لي فكرة ان هذه الحرارة من الممكن ان تؤدي الى انفجار الديناميت والبارود والقنابل التي امتلأت بها الصناديق من امامي وورائي .. تمايلت ريقي وسكت . وكأن رأسي عندما اصطدم بالسيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التي افزعتني ..

ولاحظت ان الطائرة تهتز .. وانها تهبط .. او هكذا توهمت .. والتفت حولي لأتأكد من شعوري .. ووجدت الوجوه كلها تؤكد ان الذي احسست به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط .. مع اننا لم نترك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل في المطار ان اجهزة التكييف في الطائرة قد تعطلت . ولابد من اصلاحها ..

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا ان هناك حرصا من جانب احد من الناس على ان نعيش او على ان يعيش هو .. فقائد الطائرة الذي لم اره لا يريد ان يموت لا هو ولا غيره .. ومن اجل ذلك عاد الى الارض ليصلح الجهاز الذي احتمل ثم يسامحنا جلستنا في اواسط افريقيا .

وارتفعت الطائرة .. وكلما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا .. شيء عجيب .. كان خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا الى منطقة قطبية جليدية .. وبدأت انطوي على نفسي .. او على الاصح انثني على نفسي .. واضع يدي على بطني وعلى جنبي الايسر .. وانصادف ان يصطدم رأسي بصناديق السيارة التي انجذبت وضعا محاذيا للطائرة .. فالطائرة تتجه بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها الى الشمال الى القاهرة .. فانا اركب سيارة لا تتحرك ومع ذلك تطير بسرعة ٥٠٠ كيلو في الساعة . وفي درجة حرارة قريبة من الصفر ! .

وكانت سعادتي لا حد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران .. وهبطت الطائرة الى ارض المطار .. مرة اخرى . لكي يتم اصلاح اجهزة التكييف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت انا في مقعدي .. وهبط قلبي في قدمي .. واصبحت حياتي شيئا عند قدمي لا يساوي ان احرص عليه .. فقد وجدته الى جواري شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين الى ارض مجهولة .. يدافعون عن قضية الحرية .. وقضية الشعوب التي لا يعرفونها والتي لم يروها ولم

يعرفوا لغتها .. واحسست ان مشاعري هذه نوع من الترف .. وان سلامتي نوع من التعالي .. وان مخاوفي طفولة .. ولم ابرح مكاني ..

وبعد نصف ساعة استغرقتها في معاناة نفسي وعنائها . قامت الطائرة .. وقد تغير كل شيء فيها .. صوتها .. هواؤها .. جوها .. طعمها .. فقد اكتشفت فجأة ان في فمي لبانة . وان هذه اللبانة قد التصقت في جدار فمي .. كأنها هي ايضا خائفة .. ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتي .. وتغير طعم الدنيا على لساني .. ولابد ان تغير لونها ايضا .. فالآن ارى بوضوح كل هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . وقد تجاوروا ومالوا بعضهم على بعض .. وناموا .. اسلحتهم في ايديهم .. وذخيرتهم تحت اقدامهم ..

وخرجت من سيارتي .. كما يفعل رواد الفضاء ..

واقتربت من احد الجنود وسألته ان كانت معه كوتشينة فقال وكأنني انتزعته من بحر من الالم العميق معي .. نلعب كونكان .

وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا اعرف غير لعبة الكومي !

ورجعت الى مكاني من السيارة .. لا انا اريد ان افرض عليه ان يعلمني الكونكان .. ولا هو يريد ان يلعب الكومي .. ولا حتى في الامكان ان نشترك جميعا في لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية اخرى .. كما تنظر سمكة الى سنارة مع فارق واحد انني ابحث عن الذي يمدني ايضا من ماء له رائحة كريهة . ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرحة .. وخرجت من السيارة وتسلقت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له . يبدو انك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكاني فقد كان نائما وهو مفتوح العين ..

اذن فالطائرة سجن حقيقي .. الساعات كلها غريبة .. لا صوت .. لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس شعرت بوحدة فظيعة .. ومع كل هذه المواد الملتهبة اشعر ببرودة فظيعة .. ومع كل هذا الارتفاع اشعر كأن الطائرة تزحف تحت الارض .. والليل طويل .. ويبدو انه ليل دائم .. فالطائرة بلا نوافذ .. او على الاصح لم اجد لها نافذة .. وحتى اذا وجدتها فلا معنى لها ..

واغلقت الظن اني نمت . .

وسحبت عيني على ضوء أرسلته من ضوء النهار . . أو هو ضوء النهار . . وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير . . صباح النور . .

طلع النهار . . والشمس بدأت أشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا اننا أمضينا في الجو ثلاث ساعات . . وقالوا خمس ساعات . . فلا معنى للزمن . . ولا معنى لما نقول . . فنحن شحنة في أوزان جوي . . والسائق هو وحده الذي يعرف مصير هذه الشحنة . . وان كنا نحتفظ ببعض المعلومات الأولية . . ومن بين هذه المعلومات اننا في الطريق الى الكونغو احدى المستعمرات البلجيكية والتي تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة . . والتي عدد سكانها ١٢ مليونا . والكونغو في حجم الهند التي يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليونا . . ولذلك يمكن أن يقال ان الكونغو « دولة » خالية من الناس . ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى أن نجد أحدا في أي مكان . . فالرجل الانجليزي الذي اكتشف الكونغو في سنة ١٨٧٥ أدهشني جدا عندما صادف في غابة شاسعة أربعة أشخاص . فقد أعلن انه قابل مظاهرة من المواطنين !

والكونغو هي أكبر « مزرعة » يزرعها الانسان .

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا . . ومساحته الغريبة حوالي مليون ميل أي نصف مساحة الفصر ومن الغريب أن الذي اكتشف الكونغو ليس بلجيكيا . . والذي يملك الكونغو أيضا ليس بلجيكيا . . فالذي اكتشفها صحفي بريطاني اسمه جورنون ستانلي . . وملك بلجيكا الماني لم ير هذه البلاد . . ولم يفكر في أن يزورها . وانما كان مشغولا بامتصاص أموالها . وكان هذا الملك نموذجا لدناءة الانسان ووحشية الرجل الأبيض . . فقد ارتكبت في الكونغو مذابح ليس لها نظير في التاريخ . . فقد كان من حق الرجل الأبيض أن يقطع ذراع وساق أي رجل من الكونغو لأي سبب . . وكثيرا ما كدس الرجل الأبيض عددا كبيرا من أطراف المواطنين للارهاب . . وظل هذا الارهاب الوحشي زمنا طويلا لا يدري به أحد . . ولكن عندما علمت القارة الاوروبية والعالم المتحضر أنباء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمي . . ولم يكن هذا الفزع معناه الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار . . وانما كان معناه فقط أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا في مكانهم

فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة . . وفرنسا تملك أرضا في حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك أرضا في حجم بريطانيا ٣٠ مرة . . والبرتغال تملك أرضا في حجم البرتغال ٢ مرة . . فالمطلوب هو أن يغسل البيض أيديهم من دماء السود فقط . .

ولكن أن تظل أقدامهم في كل مكان . . يسرقون دماء القارة السوداء التي تتفجر بالنور والنار أيضا . فافريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمي و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠٪ من الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل . وعدد سكان افريقيا حوالي ٢٥٠ مليون نسمة وفيها ٧٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٢٢ مليون مسيحي والبقية من الوثنيين . . وكانت افريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التي ابتدأت في سنة ١٥٢٠ تعبر المحيط الى امريكا .

والغيت دوليا في سنة ١٨٠٠ . . ولذلك فحوالي ٢٤٪ من الشعب الامريكي من الزنوج والزنوج قد اختلطوا بالسكان في امريكا اللاتينية . .

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن يتنازل عن ثروته المليون ميل الى الشعب البلجيكي في سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد . . أما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات

وما تزال الطائرة معلقة في الهواء . . ومن الطبيعي أن نسمي كذلك فلا علاقة بين رغبتي في أن أصل الى الكونغو وبين الطائرة . . حتى في الطريق الى المكان الذي لا أعرفه . . وأنا أحاول أن أتسلى بشيء . . ولم أجد ما أتسلى به . . لا أجد أتحدث اليه . . ولا كتاب ولا ورق . . ولا قلم . . ولا جريدة . . ولا رغبة في أن أفكر في أي شيء . . فأفكاري أكثر انكماشا من جسمي . . وعقلي مشغول بمصراني الأعور الذي تحول الى وخز ابرة . . ثم وخز مسمار بارد . . ثم مسمار محترق . ونظرت الى أحذية الجنود الضخمة . . ووجدت أن هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للأصابع والقدمين من البرودة الموحشة . . أما حذائي فأقرب الى شبشب الحمام . . وأما جواربي فهي أقرب الى الحواسات . . وأما أنا فأقرب الى الحفاة العراة . . ولابد انني سأكون أكثر الجميع خفة عندما نصل الى الكونغو الحارة . . ولكن متى نصل . .

وكانت الطائرة قد استمعت الى ما يدور فى رأسي .. فاتجهت الى الأرض .. تحاول الهبوط .. وحطت على أرض الخرطوم .. وفى ساعة مبكرة دافئة ..

وفى مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحة .. انهم ناموا وقاموا وشربوا الشاى الذى أحلم به .. وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. وأذرعهم مسترخية .. واشعلوا اعواد الكبريت بلا خوف .. واطفؤوها تحت أقدامهم بلا خوف .. واعطوا لنا هذه الابتسامة السمحة اللامعة .. وهذه الابتسامة هى ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة اكواب من الشاى والسجائر والمشاركة العاطفية والوطنية لمورد الشعب فى الكونغو ضد الاستعمار البلجيكى .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا فى أول لحظة التقائنا بهم فى مطار الخرطوم ان نحمل تحياتهم الى لومومبا الذى يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبى وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا فى بلاده قليلون ولكنهم فى العالم كله ألوف الملايين

ولا ازعم اننى تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموما بساقى وبطنى .. ومتطلعا الى الدخان الذى يخرج من كوب شاى .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الأكواب .. وكان معدتى فرقعت بين أصابعى فمددت يدى الى كوب من الشاى دون ان استأذن من أحد .. وفوجئت بان أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين ينهضوا فى الصباح الباكر .. فالقانون اسمه « تقسيم العمل » .. فانا عندما مددت يدى .. امتدت يد أحد الجرسونات تمنعنى من تقديم فنجان شاى الى نفسى .. فهذه مهمته هو .. انا اطلب وهو يقدم .. فاذا قدمت لنفسى فنجانا من الشاى فقد اغتصبت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل .. واحترمت نفسى والقانون .. وجاءنى الشاى البارد وابتلعته وانا أغلى من الغيظ !

واحسست ان هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذى لقيته من القاهرة الى الخرطوم .. وقررت أن انسى هذه القصة التى فرضت نفسها فرضا .. هل من حقى ان اطلب فنجانا آخر من الشاى الساخن جدا حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة أننى لا أملك مليما واحدا ثم ان هذه التحية التى توهمتها على انها تحية الى لومومبا من شعب السودان الا استحق على حملها فنجانا من الشاى الساخن .. ما اعظم الرسالة وما اتفه الاجر !!

وبهمت كأى محام فى محكمة النقض وجعلت دراعى اليسرى ملتصقة بجسمى كانما تقبض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت .. بل أريد الشاى ساخنا .. اريده مغلى كالثورة فى الكونغو .. وفى كل أفريقيا .

وكأى « محام » لا يتكلم فى الموضوع لم يسمع منى الجرسون وتركنى استمر فى الكلام عن نفسى وعن تعبى وحاجة الشاى الساخن .. واختفيت به فى مكان من مطعم المطار .. وصببته فى أعماقى .. فى أمعائى .. وسكت المكوك فى ضرباتى الأخيرة .. وسجلت فى تاريخ حياتى ان هذا هو اجمل واسمع فنجان شاى شربته فى حياتى

وبعد هذا الدفء فى جسمى .. وفى الجو .. وبعد ان امتلأت الدنيا بالشمس .. اكتشفت ان فى داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ .. ومن هذه النوافذ رأيت افريقيا ذات الغابات الكثيفة .. الشاسعة .. وبدأت ارى بوضوح نهر النيل وفروعه .. ومسطحات مائية واسعة .. وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يبارون فى معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على الارض .. وتحولت الرحلة الى مباريات فى دقة النظر .. وفى القرب أو البعد من الارض .. وما الذى يحدث لو سقطت بنا الطائرة .. واصبحت صحبة لذباب تسى تسى .. والحقيقة ان هذا الذباب ليس فى السودان .. ولكنه فى تنزانيا وانه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الألوف من الناس .. فهذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذى تلسعه .. فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من شاعرية الارض الخضراء تحتنا فان احدا لم يمل النظر اليها .

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل .. فقد كان لابد أن أكون على الجانب الآخر من الطائرة .. ولم أستطع أن أتحرك ولا أن أزاحم الجنود .. ولأنه أننى سوف أراها عند العودة .. ويجب أن تكون عودتنا نهارا !!.

وبعد أن اطمأنت نفسى الى أن الطائرة تطير .. والى أننا قريبون من الكونغو .. أسندت رأسى الى يدى .. واستغرقت احدى الطمأنينات وتغطيت وثبت فى حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود ..

وصحوت .. والصقت خدى بالنافذة .. فالطائرة تهبط ..

ونقترب من الارض الخضراء الواسعة الشاسعة .. ولا شيء يدل على ان هناك احدا من الناس .. لا بيوت .. لا طرقات .. بل الطيار نفسه لا يدري أين هو .. لا مطار .. وهبطت الطائرة على ارض مستوية .. ارض مغطاة بالحشيش الاخضر .

هذه اذن هي الكونغو .. هذا الاخضر الواسع .. هذه الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة .. والتي تخفي عددا من العيون السوداء التي لا نراها .. والتي تسيطر على عدد من الاقزام وعلى عدد لا نعرف مداه من اكلة لحوم الانسان .. وغير ذلك من الاوهام والمخاوف التي يسمعها العامة في كل من يطير اليها .

واذكر انني عندما دخلت مطار الخرطوم لمست احد كبار الضباط بعد مصافحتي بحرارة من يعرفه .. والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر .. ولكن المصير العام معروف لدى كل منا .. فنحن من القوات المصرية المسافرة الى الكونغو .. وهذا يكفي .. واستمرت هذه الابتسامة لا ادير معه حوارا .. كانت الرحلة صعبة

لم يرد وانما ازداد عدد الاسنان البيضاء اللامعة في فمه يعسب أقول به .. ولكني بينا كيف .. فقد عدنا الى القاهرة قريبا .. في المرة الاولى .

فقال : يعني ذلك .. والحمد لله على السلامة

وقلت مصححا وانا اريد ان اعرف : كم عدد الساعات التي نقضيها حتى نصل الى الكونغو .

وضحك بالعمل : لا احد يعرف .. فالكونغو واسعة جدا .. ووجهة هذه الطائرة سر عسكري .. واذا هبطت الطائرة في احدى الغابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الاقزام فمعنى ذلك أنكم في شمال الكونغو .. اما اذا كانوا عاديين فانتم في أي مكان آخر .

ومعنى ذلك انني يجب ان انتظر ابناء الغابة ليتفرجوا .. واحسب اطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة .. ولم يظهر أحد .. لا احد .. لا ناس .. لا صوت .. لا حيوانات لا حشرات .. لا فراشات .. فالصمت دافيء .. والرطوبة كثيفة .. وكل شيء ساكن في مكانه .. ونحن نحط دخلاء على ملايين الملايين من الاعشاب والاشجار ..

ولم يكن عند احد وقت للتأمل .. فعندهم مهمة عاجلة ولذلك تطايرت السلاطين والصناديق .. واديرت محركات السيارات الجيب وخرجت من الطائرة .. والتف حولها الجنود .. وركبوا السيارات .. واستعدوا واصطفوا .. وصدرت اليهم اوامر وتحركوا واختفوا .

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الامريكي .. وطلب مني عدد الصادرة .. يا ابن الابه

لقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيا ضخما وزجاجة بيرة .. وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الاولى في طائرة مدنية .. فلا أثر لتعب أو الارق على وجهه .. ولم تطاوعني نفسي أن أسأله عن موعد العودة .. فقد أحسست انه استعملنا .. ركب هو في الجانب المدني وركبنا نحن في الجانب العسكري من الطائرة .. فلا كوب ماء .. ولا كوب شاي .. ولا كلمة .. وظل يفعل بنا ما يشاء ..

وجاء أحد ضباط الامم المتحدة وطلب الينا أن نركب طائرة عسكرية صغيرة تنقلنا الى مدينة كوكيلافيل .. وهذه هي اول مدينة في الكونغو نذهب اليها .. أما هذه الارض التي هبطنا اليها فليس لها اسم .. وانما لها رقم فقط ..

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة

وكان قائدها يضحك .. وهذا مجرد ابتسام .. لا مبرر للضحك الشديد على وجهه .. ولا مبرر للضغط الذي يطير به الينا .. ولا لتجاهله الاسئلة الكثيرة التي نوجهها اليه الا أن يكون يضحكنا !

وكأنه احضر النسخة المطلوبة فأنزلنا بسرعة في أرض ملساء خضراء .. وتركنا نلقي بأنفسنا من الطائرة .. وظل هو في مكانه في الطائرة .. ولا كلمة .. ولا اشارة .. ولا نظرة .. وتركنا في ارض لا نعرف فيها احدا .. ولا يعرفنا فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الامم المتحدة ومعنا أحد الضباط المصريين الذي سبقنا الى هذه المنطقة .. ووجدنا امامنا مطعما قذرا .. ومقاعد خشبية .. وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا .. وفتحنا العلب .. وبدأنا نأكل ..

والطعم مجهول .. ليس له موطن .. ويبدو انه كان مملوكا

لأحد الملحكيين الذين هاجروا . وواضح جدا أن المكان مهجور وكل ضابط أو جندي يمسح بمنديله مقعده . ويمد يده الى أكداس العلب ويأخذ ما يريد ويلقي بالعلب الفارغة في أي مكان . ولذلك فالمطعم مليء بالفارغ والعلبات ..

وكانت العلبة الاولى تونه . وكانت العلبة الثانية فاصوليا . والعلبة الثالثة فاصوليا . والعلبة الرابعة اناناس .. والعلبة الخامسة خبزا . ولا توجد أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب . وامتدت أيدينا الى كل شيء . وأكلنا كل شيء .. ولا طعم لأي شيء . نفس جدا وقت تذوق الطعام . وانما هو وقت ملء المعدة بالطعام . وبعد خطاب اكتشف ان أصعب شيء في هذه البلاد التي لا توجد فيها الامطار هو الحصول على كوب ماء ..

وتوجد ان الجالية وهم يتكلمون الفرنسية التي تحتوي على الضحك . فهم يغيرون بعض الحروف أثناء النطق .. فحرف « الجيم » يصبح حرف دال . وحرف الالف يختفي . أو يصبح حرف تاء .. وحرف اللام يصبح حرف نون . وكل هذه التعبيرات مقبولة على العين والرأس بشرط أن تؤدي في النهاية الى كوب ماء . ولم تؤد الى كوب ماء .. وانما اسعرتني عن وقت لتحقيق هذه الامنية في أقرب فرصة .

والذي سوف عادة من هذه الملحظة هي تناول هذه الاطعمة المحفوظة الباردة قد حدث .. فهذا الذي اشعر به نوع من الوكزة نوع من المغص الشديد . والبحث عن المسكنات أصعب من البحث عن الماء . والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجال لمحكي في الكونغو .

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الامم المتحدة .. بكثير من الجزائريين الذين وضعوا علامات الامم المتحدة .. وافترست وسلمت . وطلبت الماء . وجاء الماء . وطلبت الدواء ووجدت الطبيب والدواء . وكان الطبيب دنمركيا . وعرفته بنفسي وبزملائي . وضحك الطبيب وقال احترسوا من الامراض الجنسية .

ولم نضحك فقد قالها . وانما كان جادا . ولذلك استوضحته . وكان رده انه توجد امراض جلدية مستحيلة العلاج .

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخف من الامراض الجنسية .

فقد كان يريد منا الا نصافح أبناء الكونغو أبناء وجدناهم الوطنيين العاديين والموظفين .. فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا أيديهم بالسلام . لقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا الملحكي الأبيض .. ثم ان هذا الملحكي قد عاش عشرات السنين وهو يقطع أيدي أبناء الكونغو لأتفه الأسباب .. فاذا نحن نرفعنا عن مصافحتهم . نحن الشرقيون مثلهم . كما أسوأ من الملحكيين المستعمرين .

ولذلك لم أكد أرى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت اليه .. دون أن أرى الزوج الطويل الذي الصقه بجسمه ودون أن ألاحظ أنه عريان تماما . ومددت يدي وقلت له ما معناه . اريك يا أخ ..

ولا أعرف ان كانت العبارة التي قد صدرت مني معناها العجلة أخوه .. ام كان معناها . أعد مضي وقت طويل لم يصافحني وحي أبيض ...

وان كنت أسلك ان ان لوني كان أسفي في ذلك اليوم .. فالسهر الطويل .. والارهاق الشديد .. والجوع والاضطراب النفسي والمعر قد جعلني أصفر اللون . ولابد أن أعصابي كانت مشدودة لدرجة انها صحبت عني من وجهي فأدخلتهما بقعة ملمسرات الى الزرقاء . ولا بد أن شعري قد ازداد كرمشة . وأصبح أقرب الى شعر الزنوج .

على كل حال هذه صورتي كما أراها أنا . اما صورتي كما يراها هذا الأخ الزنجي فلا أحد يعرف مداها .. ولكن مهما كانت صورتي في عينيه . فانها لم تمنعه من أن يمد يده . وضغط على أصابعي بقوة . كأنه يؤكد لنفسه أن الذي يمسكه هو آدمي أبيض حقيقي .. وأنه ليس حالما . وان كنت انا على يقين من أنه حالم فعلا . لهذا بريق غير محدد . بحقيقة العيني جامدتان . انه يشبهني عندما دعيت للقاء ملكة انجلترا في شمال ايطاليا وكنت من المحظورين . وادخلني جانبها في غرفة من داخل غرفه .. لأجدها أمامي عارية تماما .. وفي دورة المياه .

ويبدو أن مصافحتي لهذا الزنجي قد شجعت زوجته أو ابنته على أن تمد يدها .. ومن وراء الاشجار ظهر كثيرون .. وامتدت أيديهم بالسلام والتحية .

وعندما عدت الى السيارة قال لي الطبيب الدنمركي . انك ستصاب

محبوبة هنا .. وعرفت في اعماقي على ابتسامة بدينة فاطمية
ثم عاد يقول لي : وانت محظوظ ايضا .

وعرفت انني محظوظ حقيقة .. فلو تركت عاريسا في منطقة اخرى الى الشمال قليلا .. لكنت بطلا لمأساة حقيقية .. فمن عادة القبائل هناك انهم اذا اطلقوا الى شخص احبوه .. واذا احبوه بصقوا على وجهه .. فالحمد لله !

ولا أذكر من الذي سألني ما هي احسن اغاني ام كلثوم .. لست ادري .. فقلت : اليوم ..

فقد كنت احلم بالنوم .. ان احس ان جسمي عني العصيان .. لا شيء يطاوعني .. احاول فتح عيني فلا اقوى .. احاول مد ساقي فلا استطيع .. احاول ان اقعد فاتوجع .. احاول ان اقف فادوخ .. احاول ان افهم معنى الكلام طلعا عن معقول — ومعنى كلمة « معقول » هو بالضبط العقال العربي القديم الذي تعقد به رجال البادية .. عقل البعير اي ربطه بحبل .. والكلام غير المعقول اي غير المربوط بحبل من المنطق والفهم !.

ودخلت بنا السيارة الحبيب في احد الفنادق .. الفندق له حديقة .. والفندق من دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات ان المكان مهجور .. والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد ذلك .. واوراق الاشجار التي غطت الطرقات لم تمسسها يد ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا اعرف ان كانت هذه الطيور القاتمة التي تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية ام هي اوهامي .. او هي الطيور التي رآها فرعون مصر وهو يروي احلامه للنبي يوسف عليه السلام .. هل هي غربان او صقور .. او عصافير او فراشات .. او هي نقط حائرة فوق حروف الكلمات التي لا تقوى على الخروج من فمي .. او التي خرجت بالفعل من افواه الزملاء ولم اجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هذا فندقا مهجورا .. انه احد الاديرة .. وبعد تركه الرهبان .. ووجدت فجأة انني استطيع ان افتح عيني وان اتحكم في قدرتي على الفهم والتركيز .. فقد سمعت من احد جنود الامم المتحدة ان في الدير مكتبة جيدة .. وانه في امكاني ان اراها لو اردت .. والحقيقة انى اريد ولكنني لا استطيع .. واذا لم استطع اليوم .. فسوف استطيع ذلك غدا .. وعلى مهل .. وتخيلت

نفس سرعة انني احمل معي الى القاهرة عشرات من هذه الكتب .. ولم استطع ان اتخيل انني احمل المئات .. فقد كان خيالي عاجزا عن المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لابد ان ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنا على غرفة نظيفة .. او على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا الشخص الذي يتطوع لتنظيفها .. لان احدا لا يمكن ان يكلفها بالامر .. فلا احد هنا يأمر ولا أحد هنا يطيع .. لا حكومة .. لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة قسمين .. والقسمان منقسمان قسمين .. ولا احد يقوى على تنفيذ الاوامر المتضاربة التي يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومومبا .. والرئيس تشومبي .. وارجو ان تعفيني من ذكر اسماء شيوخ القبائل التي يصل عددها الى الف قبيلة ..

واخيرا قيل لنا ان هناك غرفة ..

وعلينا ان ننتظر ساعة اخرى ..

وعلينا ان نشغل انفسنا باي شيء ..

وفجأة قال واحد منا : لو انفتحت لنا طاقة القدر فما الذي نطلبه .

فاجاب احدنا : كوب ماء

وقال آخر : دشا باردا ! ..

وقال ثالث : سندوتش فول .

وقلت انا : اطلب اليها ان تظل مفتوحة نصف ساعة .. لان الذي احتاجه كثير جدا .

وكان طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة .. وفي الغرفة سرير .. وقربها مصباح ..

وكان طاقة القدر انغلقت .. فقد كان من الضروري ان ننام جميعا في هذه الغرفة .. نحن الاربعة ننام على السرير .. او اثنان ينامان على السرير .. واثنان ينامان على الارض ..

وفي هذه اللحظة اعترضت على ان تكون اغنية اليوم هي احسن الاغاني .. وانما اغنية : يالي نجومك شهود على اوعى يا ليل ..

وكان التعب أقوى من خيالي ومن احلامي ومن بقايا الكبرياء .. وارتميت على الأرض .. ولم يكن يفصل بيني وبين الارض غير الصحف الصباحية التي جئت بها من القاهرة .. وتمددت .. وانشحع زميل آخر ونام الى جواري .. اما الزميلان الآخران فقد ناما على السرير .. ولم يعد أحد منا على ان يطفىء النور .. اما من التعب .. واما من الخوف .. واما من الحرص على اصطياد الحشرات والهوام التي تتساقط من السقف علينا .. او التي تكون في طريقها من الارض الى السقف فتحاول ان تخترق اجسامنا .. او تحاول ان تثبت في ملابسنا على ان نثبت في الفراء .. او لعلها قد اشتاقت الى اللحم الابيض ..

وأعتقد انني نمت بعض الوقت .. كأنني قطعة من الحديد الملتهب استقطت في ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم العميق صحوت .. لاجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت الحشرات على شفتي ووسادتي .. وعرفت كيف المصباح الضوء .. وفتحت عيني .. استطيع ان اقول انني انا الذي فتحت عيني .. وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على انني قادر على التحكم في اعضائي — ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا .. فلا يمكن حصر عدد الحشرات .. انها جيوش .. ولا اعرف بالضبط ما اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة .. وتمشي في جميع الاتجاهات .. وتوهمت — من شدة الخوف — ان احداها هي ذبابة تسي تسي .. واظن انني قد رأيت صورة لهذه الذبابة في بعض الكتب .. ومعنى ذلك ان « النوم » ليس اعتنى المفصلة .. ولكنه نهايتي المحتومة ..

ووجدت زملائي جميعا نائمين .. ومن الغباء ان اوقظ احدا منهم .. ومن العبث من ان نشترك جميعا في مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو ايقظتهم فاين نذهب .. ان الليل طويل .. والصمت رهيب .. والاصوات التي تجيء من بعيد لا أول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذي استطعت ان اميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكي كالأطفال .. ونحن على مسافة امتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق الثائر .. وهو مليء بالتماسيح — اما الصرخات والهمهمات والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا أعرف لها مصدرا ..

اذن لابد ان اسكت ..

ولكني لم استطع .. فانا ما ازال مرهقا .. والراحة التي حصلت عليها تكفي لان افتح عيني .. وتكفي لأن اشعر بهذه الحشرات المروعة ..

وناديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح .. اصح ..

قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا اخي اسكت .. أنا تعبان

قلت : انا تعبان اكثر منك .. ولكني اريد ان أسألك ..

قال : تسألني الآن !.

قلت : ضروري .. المسألة في غاية الخطورة ..

قال : هل أنت جاد ..!

قلت : جدا ..

واعتدل في جلسته ليسمع مني هذه القصة التي لا اساس لها من الصحة .. قلت : ان الطعام الذي تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وانا اعرف هذا اللحم .. فلقد اكلت لحم القرد اكثر من مرة .. واعرف النتيجة .. اعرفها .. بل اشعر بها .. لقد سبق لي ان شعرت بذلك .. ولولا ان طبيبا انقذني لكنت الآن في حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت انه فتح عينيه .. واخذته الدهشة .. وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طرفه .. وسحبت قدميه الى الارض .. وسألني : لا أفهم ماذا حدث بالضبط ؟

اذن هو يريد ان يسمعني من جديد .. اذن هو قد صحا تماما .. وهو خائف جدا .. قلت له : لقد اكلت لحم القرد في هونج كونج .. ومن خصائص هذا اللحم ان الذي يأكله تظهر عليه اعراض القرد .. فيهرش وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظر الى يدي وهما يرشان جسمي ، تماما كما يفعل القرد ..

وبدا الخوف على وجهه سدها وحدى حلست مقرفصـ:
اتلو واهبط ..

وسالنى . والحل ؟

قلت : لا اعرف ..

قال : الا يوجد دكتور هنا .. طبعا هنا يعرفون عدة الكوبه التى تصيبه الاجانب . ولا بد ان لديهم مناعة ضد لحم القرود.

ولم ارد عن قولى وانا اهرس مسنده على عباوة . لا اعرف . لا اعرفه !

اما الاحمـــرار الذى كان فى عينى . واما البريق الذى صاحب هذا الاحمرار فهو ســـب براعتى فى التمثيل .. واحسـاسى باقتراب النهايه .

وجاءت النهـايه . لقد قفز من السرير . خائفـا وانطلق الى خارج الغرفه ..

وقفزت فوق السرير كل قوتى ..

وسقط السرير ..

ولم تنته فرحتى !

°°°

:: سهر الليل .. ليلاس ..
www.lilas.com/vb3

أى جزمة ياولدى !

فقط عرفت ما معنى كلمه . المستحيل ..
والجواب المستحيل هو كل شىء .. واى شىء .
فلا امل عنـدى فى كوب ماء .. او لقمـه عيش .. او صابونة اغسل بها وجهى .. مع ان الماء هنا تحت كل ملليمتر من الارض او من قشر الشجر . والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد اوراق الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقـال مسمومة .. ولكن اهل الكونغو عنـدهم مناعه ضد السموم وضد الحشرات والزواحف وضد كل عوامل المرض والفناء .. اما لانهم مرضى بالفعـــل .. او موتى حقيقـة .. واما لان هـذه الحشرات قد ملت دماءهم وتتطلع الى دماء جديدة .. مع ان تركيب الدم واحد عند كل النـاس .. وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو فى الغطـاء الخارجى .. اى فى البشرة فقط ..

ووجدت مواطنا فى الطريق المرصـوف — وكل الطرق هـنا مرصوفه وناعمة .. الوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون على الطرق الكثيرة والمطـارات المتعددة . فالبلاد واسـعة — وسالته : الا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن معطلة .

قلت : السينما فقط .؟

قال لم افهم ..

قلت : اقصـد حالة المرض هى المعطله اما المطعم فلابد انه مفتوح ..

قال : كل شىء معلق ..

قلت (ضاحكا ومحاولا ان اكون ظريفا : ادى بلادكم الواسعة تضيق بالاصدقاء .

قال : لماذا ؟

قلت : لانني لا احد كوب ماء .. ولا اقول فنجان قهوة

قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم اسمع كلمة مطعم بوضوح رغم انه قالها .. وانا رددتها .. وكدت اسحب ذراعه .. واسحب يده .. واسعنا من بعد واشير الى مكان المطعم .. واشار هو براسه في اتجاه المطعم .. ولم اجد وقتا لاشكره . ودعت ووراي الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطىء نهر الكونغو .. ولا اعرف اسمه . والاسم ــ كما يقول شكسبير ــ لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الاوروبية الجيدة .. وبه مناضد وترابيزات .. وبه أهم من المناضد اناس .. واهم من هؤلاء الناس : نساء .. نساء جلسن وحدهن .. وامامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين الزجاجات يتصاعد دخان السجائر .. اما اصواتهن فاعلى من هذا الدخان ..

دعني احدثك عن هذا المظهر المباهج للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة ملونة .. وكل واحدة لا تقل سنها عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلو جراما .. ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمتر .. اما خط الصدر فمثل خط الارداف اكثر من ١٢٠ سنتيمترا .. واما خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. واذا صح فهمي لحركات السيدات فان هذه الارنباسية في العين هي غمزة في اتجاهنا .. وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت ان اعرف من هو المقصود بهذه الغمزة فاحنيت وجهي وتشاغلت بالكلام .. واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة اخرى .. اذن فلست انا المقصود .. وانما المقصود هو كل من يجلس معي .. او نحن جميعا .. فهي غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رايكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل نظن ان الفتيات سوف يدعوننا الى الغداء ..

قلت : اما الغداء فلا أريده .. انما اريد فنجان قهوة .. ومتنازل عن الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدي .. وادرت ظهري للفتيات .. ولكن اذني كانت تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث فتيات تقريبا هكذا :

ــ اظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا ..

ــ معك حق .. فاليونانيون موجودون في كل مكان .. ولو غرقت الدنيا لظهر رجل يوناني يبيع اطواق النجاة ..

ــ ولكن يظهر انهم جميعا ليسوا تجارا .. فاغلب الظن ان احدهم طبيب .. فأصابعه رقيقة .. وحركاته بحساب ..

ــ ايهم ..؟

ــ ذلك الذي اعطانا ظهره .. وهو اكثرهم حركة واكثرهم قلقا

ــ طبيب ؟ انه اقرب الى المرضى منه الى الاطباء ..

ــ لعله عاشق ..

ــ وجاء يتوب في الكونغو ..

ــ طبعا على يديك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها اربعة فناجين قهوة.

وقبل ان اساله كيف عرف انني اكاد اموت شوقا وعطشا ومزاجا الى فنجان واحد اشار بيده الى حيث جلست الفتيات الثلاث ..

وكان من الذوق ان استدير لأشكر .. وبعد ان اشكر اسأل كيف عرفن ذلك ..

واستدرت لاشكر .. وانفردت صاحبة الغمزات واللفتات بالشكر .. وبحركة من يدها رفضت التشكر . تماما كان الشكر كرة تنس ويدها مضرب .. واصابني التشكر في دماغي .. فعرفت ان اذهب اليها اشكرها .. واعرف منها كيف عرفت .. وهل يمكن ان يذهب بها الكرم لدرجة ان تأمر لنا بفنجان آخر ..

ومددت يدي شاكرا لها .. وشاكرا للاخرى .. وللثالثة .. وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسي .. وقدمت كل واحدة نفسها : جورجيت .. سوزي .. نادية ..

قلت : نادية .. اسم عربي .. ويحكي عالمي ! ..
قالت : أنا عربية .. وعندي كمية كبيرة من البن اليمني ..
قلت : ربما بدافع العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. وتعوضك
قالت : تعوضني عن ماذا ؟
قلت : عن كل ما عندك من بن !
قالت : كل البن ! بعضه فقط !
قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا ..؟
قالت : عاطلة .. وزميلتي عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن ايضا نريد ان نعمل ولكننا لا نستطيع .. لا لانه لا يوجد عمل ولكن لانه لا يوجد وقود .. لا ماء ولا طعام ولا مأوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذي يبدو انه موقف تسول .. مع ان هذه هي الحقيقة .

وعندما مددت يدي اعتذر واكرر الشكر .. بدا الضيق على وجوه الثلاث فتيات .. اما السبب فهو انني تظاهرت بانني لا افهم بوضوح ما قلنه .. ولم افهم معنى ان الثلاث يسكن في فيلا مهجورة في آخر المدينة .. وانهن يفضلن ضوء الشموع على المصباح الكهربائي .. وانهن يفضلن الطعام الساخن جدا مع المشروبات المثلجة جدا .. وانهن يتعادلن برغم سنهن .. هن ثلاث ونحن اربعة .. وان اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد صدفة ذكية ! ..

ولم افهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

واعتقد ان كلمة « دوبيسه » وهي كلمة بذائية كونغولية معناها عني ..

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الاقل في كل مرة اعترف فيها : انني لا افهم ..

وانا اقطع بان هذا معناها .. لانني لاحظت ان هذه الكلمة تخرج من الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقدم على الارض .. تماما كما يبصق انسان على الارض ثم يحتك بمعالم هذه الجريمة الصحية بحذائه !

وافقت من هذه المناقشة على سؤال دار في ذهني . معقول نصل الى الكونغو ولا نرى لومومبا .؟

صحيح هل هذا معقول .

وكان الجواب ان هذا معقول جدا . فنحن لا نعرف اين هو الآن .. ولا أحد يعرف .. فهو قد اخفى مكانه عن رجال القبائل وعن خصومه .. وحتى لو عرف الناس مكانه فانهم لا يستطيعون الوصول اليه .. فلا توجد مواصلات .. التليفون وحده لا يكفي .. لان التليفون يصل بين بعض المدن فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مغتصبة للفتيات الثلاث ..

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنمركي وسألته : هل هناك أمل في رؤية لومومبا ؟

فأجاب : لا أمل

قلت : المواصلات ..؟

قال : أنا اعرف مكانه .. ولكنه هو

قلت : ماله ؟

قال : انه في حالة عصبية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ والشراب في وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا . وكثيرا ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مغص واغماء ..

قلت : اذن ما الذي يفعله ؟

قال : ضاحكا : حاولوا اقناعه بان يكف ..

قلت : اسهل ان اكف انا عن طلب اي شيء منك ..

قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا احد نسأله .. نسأله فلا يجيب ..

ولكن كان من الصعب ان اقتنع باستحالة لقاء لومومبا .. واتفقنا على ان نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفاقنا لا قيمة له ولا قيمة له .. ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. أو عن الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت احد الضباط السويديين ألا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت انه اختفى في مكان .. في اى مكان .. فليس من الضروري أن أعرف أين .. لأنه من السهل على هذا الضابط السويدي أن يشير بيده المربوطة بالشاش الابيض الى الغابة . أو الى نهر الكونغو .. لأفهم أن لومومبا قد اختفى في هذه الاماكن

وسألته ان كانت هناك أية صحف .. أية خرائط .. أي جهاز راديو لنسمع أي شيء .. لنعرف أي شيء ..

رفع كتفيه الى أعلى كأنه يلقي بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت الله ان المسئولية قد سقطت على الارض .. فكل شيء هنا : على الارض وفي الارض .. فلا أحد مسئولا عن أي شيء .. ولا حتى قوات الطوارئ الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الانيقة .. وكدست وراءها العلب الملونة لأنواع الطعام الخالية .. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجوهها بالابتسامة وبالضحك ... اما مرتباتهم فتحول من بلادها الى البنوك .

اما الناس الذين جاءوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا لا حكومة ولا شعبا .. ولا لومومبا :

وتساءلت فجأة : ما الذي يمنع أن تكون هذه البلاد أي بلاد أخرى .. فلا يوجد اي دليل على أننا في الكونغو . فان احدا من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لي اسم هذه البلاد .. بل انني في مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من أحد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها .. وانما ذكر كلمة الكونغو مرادفا لكلمة هيصة .. واتذكر انه قال بالحروف الواحد : انها هيصة . كونغو !..

ولا يوجد هنا لافتة واحدة ..

ودفعني هذا الشك الى ان انهي هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد طوى جادا

مهموما .. او هكذا حاول أن يبدو امامي .. ربما لانه وجدني مهموما .. او ربما وجدني خاليا عاطلا . فانتهز هذه الفرصة ليبدو اكثر اهمية .. واكثر فائدة للبلاد .. اقتربت منه واطلعت ابتسامة عريضة في وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت : قل لي .. أي بلد هذا ..؟

فأجاب : انه بلد ..

قلت وأنا احاول أن أعرف حقيقة : الذي يراه لأول مرة يتصور انه الكونغو ..

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذي قاله فيكتور هيجو عندما كان مريضا .. ونظر الى نفسه في المرآة .. قال : الذي لا يعرفني يخيل اليه انني رجل جاحد على فيكتور هيجو .!

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته . هل هذه هي الكونغو حقيقة !

فأجاب : لا أفهم ماذا تقصد .. كيف كنت تتصورها .. تماسيح وآكلة لحوم البشر .. انا يا سيدي لم نأخذ فرصتنا بعد .. وانت تعرف مثل هذا المعنى .. أما انكم في الشمال قد تعلمتم الاستعمار وماذا يعمل في الشعوب ..

لم انس طبعا . ولا يمكن أن أنسى .

واهم من هذا كله أن هذه هي الكونغو ..

ولا اعرف ما الذي استفدته بعد أن تأكدت من أن هذه هي الكونغو .. لم استفد شيئا . ولا اعرف كيف اضيف الى معلوماتي شيئا جديدا . ولو عدت الى القاهرة وسألني الناس اين كنت فلا يوجد اي دليل مادي على انني برحت ارض القاهرة . فلا انا رأيت الخرطوم ولا انا رأيت شيئا في الكونغو ..

وكان احد الزملاء يسمعني وانا مشغول بالحديث مع نفسي .. وكأنه رآني أضرب فكرة بفكرة .. تماما كما اضرب كفا بكف .. وكأنني كنت مسموعا فقال : عندك مانع نقوم بمغامرة .

قلت : أليست هذه مغامرة أيضا ..

فقال : مغامرة اخرى محددة .

قلت : مثلا .. تقترح ماذا ؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار . وهي سيارة للامم المتحدة .. ومفروض اننا جئنا مع قوات الامم المتحدة ونعمل في خدمتها .. ما رأيك بسرعة .. لاتفكر !

ولم يكن عندي مانع .. المهم ان اخرج من هذا الفراغ الذي في نفسي والذي حولي .. وان المس شيئا واحدا .. وان اسأل وان اعرف .. وان اقول وان يقال لي شيء ..

واتجهنا الى السيارة ..

وفي هذه اللحظة وجدنا اربعة من الجنود اتجهوا اليها ايضا .. ولان احدا منهم لم يتصور اننا نفكر في مغامرة : ركبوها دون ان يسألونا شيئا .. لقد كانوا اسبق منا الى تحقيق رغباتهم ..

والذي نسميه هو رغبة وليس مغامرة ..

واقترحت على زميل لي : الا توجد عندك رغبة في ارتكاب جريمة لن يعاقبك عليها القانون .. لان القانون اختفى هو الآخر في الغابة او في النهر .

قال : اريد ان اقتل فعلا

قلت : الجوع .. والعطش .. والارق

قال : وهذا الرجل !

واشار الى احد الموظفين من ابناء الكونغو .. فقد ذهب اليه في مكان يغسل فيه يديه ..

ولكن الموظف لم يرد عليه .. فظن انه لم يفهم لغته الفرنسية فتحدث اليه بالانجليزية .. ولكن الرجل لم يرد .

وفكرت ان اذهب اليه .. لابد ان هناك شيئا .. ان هناك قصة .. موضوعا .. كلاما .. شيئا ما يقفز من داخلي ... في حلقي .. او ميتة في حلقي منذ اكثر من ٢٤ ساعة

وعندما اتجهت الى الرجل الكونغولي ، لاحظت ان كلمة «تواليت» معلقة على باب مكتبه .. ومعنى ذلك ان هذا المكتب كان قبل ذلك « دورة مياه » ثم تحول بسبب زحف قوات الامم المتحدة الى مكتب مليء بالنشاط والحياة .. اي الى « دورة حياة » .. ولابد ان هذا المواطن الكونغولي قد توهم ان زميلي انما أراد ان يسخر منه

وجاء يطلب منه أن يخلي له المكتب بعض الوقت فيتمكن من ان يفعل شيئا ما في ركن من اركان الغرفة !

وعذرت صديقي فقد كان مرهقا ، وعذرت الرجل الكونغولي فلم يكن يدري ان المكتب رغم ما فيه من اوراق ، مازال يحتفظ برائحته القديمة الاصيلة !

⊙✿⊙

وعلى الرغم من ان المهمة التي نعمل فيها صعبة ، فإنها تدل على كل شيء في هذه البلاد .

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكبيرة .. والمطارات منتشرة في كل مكان .. والمطار عبارة عن قطعة ارض مغطاة بالاعشاب وموجودة في قلب غابة .. او على اطرافها .. والسكك الحديدية أيضا تربط البلاد من كل جوانبها .. والسيارات التي تراها من حين الى حين لا بأس بها .. والبلجيكيون قد اعدوا لانفسهم كل وسائل الراحة والمواصلات اهم المشاكل في الكونغو الواسعة . وهي مريحة جدا .

كما انهم تركوا شيئا من الترف في البلاد ايضا . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الامم المتحدة ان بعض المشاة قد احتجوا علينا .. وظننا انهم يحيوننا في حماس غاضب .. او في غضب من نوع خاص .. ولكن لاحظنا ان الاحتجاج تكرر مرة وراء اخرى .. وكان السبب واضحا : اننا نمشي على الجانب الايسر من الطريق واننا لانستخدم الكلاكس .. او اننا نسرف في استخدامه !

وفجأة — كأنه هبط من السماء — رأيت احد رجال الدين . وهو ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل في جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى مابعد الحياة .. ولانه رجل من رجال الدين فهو يمشي في كل طريق وفي كل وقت آمنا مطمئنا .. وقبل ان اتجه اليه ، كان هو قد اتجه الي .. انه طويل القامة .. ابيض اللون .. لامع الجبهة والمنظار ، والاسنان والاصابع .. بها خواتم ذهبية وفضية .. ومددت يدي وهو ايضا .. وكأنه توقع ان اقبلها .. ولم اجد على الرغم عندي سببا يدعوني الى ذلك .. وقال بحكم العادة : ماذا وراءك ياولدي !

وهزتني هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم اسمع من احد منذ عشرين عاما يقول لي : ياولدي .. فقد مات أبي ولم اعد أجد معنى لهذه الكلمة بعده أو قبله .. ومن الغريب انه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدي .. صدفة ..

وفي هذه اللحظة استعرت حو الكونغو .. فالتهبت مشاعري وساقطت مني الدموع ..

واقترب مني القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ماحدث .. فقلت : عندي همومي الخاصة ..

فاجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدي ..

واستجمعت رجولتي وحاولت أن أكون أكبر من الموقف .. وسألت القس ان كانت هناك اية وسيلة اخرى للحركة ولقاء الناس .. فنحن اقرب مانكون الى اسرى الحرب .. او كجماعة يلعبون لعبة « المساكه » .. فقد سرقنا من القاهرة ولمنا جدران الكونغو وسوف نعود غدا او بعد غد ..

وهز رأسه يؤكد لنا انها بالفعل لعبة المساكه . ولعبة الاستعمار .. وانني لو اقمت في الكونغو سنة اخرى فلن تنتهي اللعبة ايضا ..

وحاولت ان احول الكلام معي فسألته عن المكتبة التي يقال انها موجودة في احد الاديرة .

فاجاب بانها تقع في الدير القريب الذي يبعد سبعين كيلو مترا .. وهذه المسافة تعتبر قريبة في بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو ..

وسألني عن اي نوع من الكتب فقلت : اي نوع ..

وضحك وهو يقول : اعرف هذا النوع من القراء ..

وسكت .. وهز رأسه في اسف وقال : كنت مثلك .

أي انه كان مثلي يقرأ اي شيء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا محددا .. او ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتي في ان اقول له اني في حاجه الى فنجان قهوة .. وان زملائي المساكين في حاجه الى رغيف عيش .. وانا جميعا - مثله - على باب الله .. !

وكأنه على موعد مع اناس آخرين قال : هل تريد مني خدمة ياولدي !

وتعذبت شفتي الى سماع كلمة يا ولدي .. وشكرته . وفي اللحظة التي تلقى مني فيها الشكر . رفعه بهزة من يده ورأسه .. واستدار بسرعة .. واختفى في سيارته .. واختفت سيارته الصغيرة في الطريق الطويل ..

أهلاً .. أمين باشا !

أما الورقة التي في جيبي والتي سلمها عند نزولنا الى مطار مدينة كوكيلانفيل فهي تذكرنا بانه من الضروري ان نلتقي جميعا في المطار في مكتب ضابط جزائري ..

وفي الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الارض كملابس الضابط نظيفة ولامعة .. وكأنها هي ايضا « مكوية » .. والابواب مثل الزراير صنعها معدني والصمغ الاحمر جنسي ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة او الشاي او يسألنا ان كانت عندنا اية رغبة في تناول شيء .. لقد نسي الرجل انه عربي ، ولم يعد يذكر الا ملابسه والاسارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذي يرفرف ازرق في ابيض على المبنى .. وكانت محاولة خبيثة من جانبي ان اتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه ان يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرني بانه امم متحدة ، وانا اؤكد له انه عربي .. او انه من الواجب ان يكون عنده شيء من كرم المصري .. وانتهت المباراة الى نجاح الامم المتحدة !

وتبعا لقرار الامم المتحدة يجب ان نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لان الطائرة التي حملتنا هي الطائرة الوحيدة التي يمكنها ان تعود بنا واذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شيء ..

واول مايخطر على البال طبعا ان يتلمس كل منا جواز السفر الذي في جيبه ويسأل عن ادارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت انني خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج ..

فلم يسألنا أحد عن جواز السفر .. لأن مطار القاهرة ولا في مطار الكونغو .. ومعنى ذلك اننا — رسميا — لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونغو ..

ولكن ما الذي يمكن ان يحدث لو — بمحض الصدفة — حملت احدى الهيئات الطبية في مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرها من الامراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الامم المتحدة واقترحوا ان نأخذ سيارة ونذهب بها الى احدى المدن المجاورة .. ولم نعرف اسم المدينة . وانما قيل لنا ان السائق يعرف وهذا يكفي .. وهناك سوف نجد طبيبا .. وعنده تعليمات لاجراء اللازم .

اي انها موضوع اهتمام وتعليمات واجراءات ولابها سعد جميعا ..

وفي السيارة لم يتكلم السائق الدولي كلمة واحدة . لا بالعربية ولا بالفرنسية . هو انتبه لسانه ونحن ايضا .

وحتى عندما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت انه يجاوز المائة والعشرين كيلو ابديت اعجابي بالسيارة وبنعومة الشارع المرصوف .. وكانت عنده حقيقة لا مجاملة فيها . فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع مني ان استمر في الثناء عليه .. فاقترب مني قليلا لعلي ارفع صوتي على صوت الموتور ، ولكني لم افعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت اشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد أن هذه الحيوانات التي رأيتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الاوصاف التي اذكرها ليست صحيحة .. فهي مختلفة تماما عما رأيتها .. واندهشت قائلا وهل انا مسطول ؟

فأجاب الطبيب الكونغولي : نعم .
سألته : ماذا تقصد ؟
قال : من هذه النبق الصفراء على قبضتك .
قلت : وما هذه النبق ؟

قال : انها فاكهة يأكلها بالحرامي تسند وليس في هذا الوقت من العام .. لانها لم تنضج بعد .. ولابد أن احدا قد داعبكم بهذه الفاكهة ..

وضحك . ولم اضحك . وشعرت بدوخة مفاجئة .. اما بسبب الحقنة التي غرسها في جلدي .. او بسبب المشرط الذي اسال دمي ..

وتذكرت ان فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار .. وظننا — بحسن نية وغرور اكيد — انه الاعجاب .. او الحب من اول نظرة .. ولم تكن هذه الثمار في طبق او في ثلاجة .. وانما كانت تتدلى من شجرة ادخلت فروعها الى داخل المطعم .. ومن الغريب ان هذه الفاكهة الصفراء لذيذة .. وان كانت لا اسم له الطعم .. كأنها نوع من الجوافة المطعمة بالمشمش والمرشوش عليها القليل من الموستاردة والشطة .. الدمة ..

وهي نصيب من يأكل الكثير منها شيء من الهلوسة ..

وبدأنا نراجع تصرفاتنا .. واخذنا نضحك .. ولم نتسع وقتا لنسأل ان كان هذا الضحك الشديد الذي اسال عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة .. او انه شيء طبيعي ..

وحاول بعضنا ان يعثر على هذه الشجرة او اية شجرة مماثلة لها .. ولكنه لم يجد .

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التي صرفها لنا الطبيب الكونغولي .. والا حجزونا في المحجر الصحي في مطار القاهرة اسبوعين آخرين .. وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء .. والحقيقة انني لم اكن في حاجة الى هذه الشهادة الدولية فعندي شهادة صالحة للخمس السنوات القادمة . ولكن لم يتسع وقتي لاحضارها معي ..

وبسرعة عدنا .. وبسرعة نزلنا من السيارة . ووجدنا الطائرة في انتظارنا ..

ولاول مرة ارى الطائرة بوضوح .. انها جراج واسع .. ارضها معدنية وجدرانها كذلك .. وقد اصبحت نظيفة وشديدة البرودة . واحسست كأني عربان ملط .. وان ملابسي لا تحميني من اي شيء .. المقاعد المعدنية تشعر كالجلوس على البلاط .. جدار الطائرة كالمقاعد بارد .. ومن قلب الطائرة يرتفع سلم الى كابينة القائد . ومن كابينة القائد ارى بعض الوجوه .. انه اكثر من طيار .. وفي الكابينة حركة غير عادية .. لقد تحركت مراوح الطائرة .. واحدة بعد واحدة .. وتحركت الطائرة وبدون اية تعليمات تحرك

الطائرة الكبيرة جدا .. ومست على الارض الخضراء .. وارتفعت في الهواء .. الى اين ؟ لا احد يعرف بالضبط .. لم يدر بيننا اى كلام .

ولا تزال الحركه غير عادية في كابينة القائد ..

والآن يمكنني ان اصف هذه الحركه .. انهم يتناولون طعام الافطار .. يفتحون علبا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو انها مملحة وفي أيديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم فطائر من التفاح .. وكل شيء عادى جدا .. فهذه الطائرة بينهم المنحرفة .. ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين او عسكريين .. انهم جماعه من الامريكان في مهمه دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذي جعلنا نشعر بالبرودة أكثر .. وحاولنا ان نغطي هذا الموقف بالكلام .. ولكن من الذي يسمع منا .. في صوت الطائرة صارخ .. ثم ماهذا الكلام الذي يمكن أن يدور بيننا .. فكنا نضحك بلا سبب .. او كنا نضحك للسبب الذي عرفناه أخيرا ..

ونهضت وتسللت الي الكابينـة : صباح الخير .. ورد الكابتن : صباح الخير .. بيرة .

قلت : شاى ..
قال : حالا ..
قلت : شكرا .. ولزملائي ايضا ..
قال : حالا ..
وفعلا جاء الشاى الساخن .. وبهذه السهولة ..

اذن من أين جاءت هذه الصعوبه التي نتعذب بها .. الشاى سهل .. والشراب سهل .. والطعام سهل ..

ولكن احدا منا لم يحاول ولم يطلب .. ان كل شيء موجود وراء هذه الابواب وهذه الستائر .. وفوق هذه السلالم .. ووراء هذه الوجوه .. ولكننا لم نحاول ان ندق بابا وان نصعد سلما وان نقول صباح الخير وان ننتظر الرد ..

وقال : سندوتش ..
قلت : ان كان ممكنا ..
قال : ممكن ..
قلت : ولزملائي ايضا ..
قال : ولصديقاتكم .. ان كانت لكم ..

وضحكت . وسحبني الشاى والسندوتش والدفء الموجود في الكابينة والالفه الانسانية التي تتم بسرعة بين الناس دون ان اعرف من هو .. ولا هو يعرف من انا .. انا في مهمه وهو في مهمة . ونحن الاثنين في طائرة واحدة فوق الكونغو .. ونفاهم بلغة دولية .. لغة الذوق والمجامله .. لغة مفرداتها الابتسامه والكلام والشاى والخبز .. وتطرقت في الكلام ورويت له قصه فاكهة الهلوسه .. وضحك .. وتمنى لو انه داقها .. واخرج ورقة وقلما ليكتب اسم الفاكهه .. ثم اعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف انني لا اعرف .. ولكن الاسف كان واضحا على وجهه . . ولكن لحسن الحظ لم يصل الى درجه أن يحرمني الشاى والسندوتش . .

واشار من نافذة الطائرة الى الارض .. وقال . هـذه بحيرة فكتوريا .. طبعا !

من هنا ينبع نهر النيل العظيم ..

ليس شكل البحيرة واضحا . ولكن الماء لونه ازرق تركوازى .. وتوجد زوارق صغيرة .. او حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطيء .. هذه الحيوانات هي وحيد القرن .. السيد نشطه .. عددها كبير .. وان كانت تتعرض هذه الايام .. وكذلك التماسيح .. فالمفروض ان يضع التمساح بيضه على الشاطيء وقتا طويلا .. ولكن كثرة الحركة السياحية في جانب من هذه البحيرة يجعل التمساح يهرب الي الماء ويترك البيض فتجيء بعض الطيور أو الحيوانات المفترسة وتأكل البيض ..

وسألني كابتن الطائرة ان كانت الرحلة مريحة .. واشار الى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب في الذهاب وعذاب في الاياب ! .

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكرى .. قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية في الجسم .. واشار الى زميل عجوز وقال : ادوارد ..

وجاء العجوز ادوارد انه يشبه العمدة في افلام رعاة البقر .. طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل .. ولكن يده دائما قريبه من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمه المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر الينا .. كأنه يرانا لاول مرة ..

وسألته : التكييف متعطل ..

ورد عليه ادوارد ببرود اسف من رحيه وسقف الطائرة انه لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن واصلح جهاز التكييف !

وفي لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب . واصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدات والاجنحة .. وسمعت كل خلية حية في جسمي . وهمست همسا لادوارد انه حرب يجب اول يا عمدة ..

وسألني : ماذا تقولون ..

فقلت : السيد العوضي .

فقد كان في استطاعة ادوارد هذا ان يمنع التكييف مدة ساعات ويرحمنا من البرد الشديد الذي دغدغ عيوننا ودشدش نفية الاعضاء ..

اما انا فعندي مقياس للبرد لا يخطىء : اني اشعر به في الجانب الايمن من بطني ..

واختفى احساسي بالجانب الايمن من بطني .. واحساسي ببطني .. اذن فالجو دافىء والسماء صحو .. والشمس مشرقة . وما نزال نحيرة فكتوريا تحتنا .. وما نزال في المناطق الشمالية من الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان .

ولكن الحالة المعنوية احسن .

والكلام الذي دار بيننا هو من وحي الدفء .. ومن وحي الشاي والسندوتش .. ودفء العلاقات الانسانية التي تولدت بسرعة .. حتى ادوارد المغرور ما يزال جالسا عند اعلى السلم وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حربية . واصبح انها حربه .. وراح يغرقها في اكواب البيرة الباردة .. ورفع صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز رأسه واشار بيده . اشارة لم نفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدت الارض الخضراء تقترب .. والغابات الكثيفة في كل مكان .. وهبطت الطائرة .. ولكن المطار مختلف .. فله ممرات .. وهناك برج .. ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفي .. ونزلنا من نفس المكان الذي نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية .. واشار الينا

ادوارد ان ننزل .. وقال لنا : الا اذا كان احد منكم يريد ان يبقى هنا ..

ولم يكن عندنا كلام نقوله ..

ولكن غلبت علينا الرغبة في ان نعرف اين نحن .. وان نتفرج واذا لم نجد مكانا عدنا الى الطائرة .. اما هو فحرك العادة اخرج بطانية .. او مرتبة .. ودخل فيها .. وشد السوستة .. ونام في جانب من الطائرة .. ويبدو انه نام بالفعل .. وفي دقائق .. ونزلنا من الطائرة .. ووجدنا الوقفة . المنطقة لطيف .. والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون حفاة والنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار .. والزر الى الامام .. والضحك على وجوههم جاهز . واية اشارة اليهم تجعلهم يضحكون اكثر .. انهم كأبناء القلب واندونيسيا يضحكون على الماضي وعلى الملل .. وليسوا كأبناء اليابان الذين يضحكون بحساب فهم يضحكون ليعطوا لانفسهم ولغيرهم فرصة للتفكير فيما بعد ذلك .. اي فيما بعد الضحك ..

فالضحك في اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التي جاءت في هذا السطر .. انها مسافة وبعدها يجيء الكلام ..

وهذا الجو به منعش .. والضحك منعش اكثر .. والحالة المعنوية عالية .. ولا اوجاع في البطن ولا في الرأس .. وقلت لواحد منهم : هل نحن في كينيا ؟

والآن اود ان اصور ما الذي حدث في الوقفة .. اريدك ان تتصور ان قنبلة من قنابل النار التي تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت في كل واحد من الجرسونات الستة الموجودين في الوقفة .. وان هذه القنبلة متعددة المراحل .. وان مرحلتها الاولى قد انفجرت في الصدر .. والثانية في الفم .. والثالثة في البطن .. والرابعة قد انفجرت في البنطلون . وان هذه القنبلة اسمها : هل نحن في كينيا ؟ ..

لقد تعالت اصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط على الارض ..

وبدأ الزملاء يسألونني عن النكتة التي قلتها .. وكررت ما قلت .. وانفجروا هم ايضا .. وبعد ان زال اثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم وقد عاودته الصوت الذي يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن في اوغندة !

ولم اسمح له احتلاف أوعنده وكينيا في ذهني .. فلا أحد عاز لنا أن هنا .. وجمود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا أعرف ان وصف اوغنده بأنها كينيا يبعث على الضحك .. ولكن ما داموا قد ضحكوا .. فلا بد ان هذا مضحك .. تماما كما تدعس الى سوهاج وتقول لهم .. مش دي اسيوط !

ولا بد ان اهل اوغنده وجدوا في جهلي فرصة سعيدة لسعورهم بالمعالي على رجل ابيض جاهل .. ومن المؤكد انني اسعدتهم ورددت لهم اعتبارهم .. وان كنت اعرف اشياء اخرى تسعدهم لعلمت .. فان الشاي الذي تقدمه قد امتعني واسعدني .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفي كل مرة امدح الشاي الانجليزي .. بل انني تطوعت ودخلت الى الورشة ووصفت الشاي على الطريقة التي تعلمتها في جزيرة سيلان .. ومن جراء الشاي .. وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة .

ولما سألوني كيف تعلمت الشاي ..

وجدت الفرصة التي أحولها تيها الى ملامة .. واسترد ب مكانتي كواحد لديه الكثير من المعرفة في هذه الصناعة التي باكلون منها الجبن .. ولكي أؤكد لهم أن الخلط بين كينيا واوغندا من الجهل ممكن جدا .. وكثيرا ما اسقطت الطائرات في الحرب قنابل على اهداف خاطئة .. قلت : تعلمتها في شركات الشاي في مدينة كولمبو سيلان .. وفي مقاطعة دار جيلنج في الهند ..

ورويت لهم كيف ان احدى شركات الشاي في سيلان قد طلبت مني ان اعطيها عنوان عشرة من اصدقائي في جميع انحاء العالم لكي يبعثوا لهم بيدايا من الشاي الفاخر الذي لا يباع في الاسواق .. وانني اعطيتهم عناوين عدد من الاصدقاء .. وانني عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركة قد ارسلت لكل واحد منهم كيلو جرامين من الشاي الطيب في المعطر .. قال لي انه شراب الملكة الرائعة المفضل .. وكم كان جرمي عميقا .. وكم كانت فرحة ابناء اوغنده هائلة .. عندما قلت لهم انني نسيت ان اعطي للشركة عنواني ! ..

لكن هذه الشركة عندما علمت بهذا المقلب الذي أوقعت نفسي فيه ارسلت لي كمية اخرى من الشاي المعطر ..

ولا أعرف ما الذي منع هؤلاء الاوغنديين ان يطلبوا مني ان أعمز معهم في الوقت .. ولا داعي للعودة الى القاهرة ..

وسألت حائرا : اين نحن

قالوا : في اوغنده .. وهذه مدينة عنتيب

لا اعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركني وحدي هذا الجرسون الذي أعجب براعتي في صناعة الشاي لعصرت ذاكرتي بحثا عن دلالة هذه المدينة .. الآن فقط استطيع ان اجد عندي بعض المعلومات .. فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لأوغندا .. أما العاصمة الآن فهي كمبالا التي يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية ايام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصري على هذه المدينة وعلى غيرها .. ويوجد أثر للمصريين في أماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكنني أن أفسر سبب الضحك العريض الذي كان تعليقا على اسمي عندما سألني احد الجرسونات عن اسمي ، ونحن منهمكون في صناعة الشاي ، فقال : آه .. امين باشا ؟!

وسألته : كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو في الاربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طول الوقت ويغسل همومه أولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذي أضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب الالماني الذي عينه غوردون باشا حاكما على المحافظة الاستوائية بأمر الخديو اسماعيل يوم كان العلم المصري يرفرف على هذه البلاد .. وأمين باشا هذا كان شيئا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الافريقية .. وقد اشتغل فترة طويلة في قصر السلطان بتركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركي .. وان كان لم يعتنق الاسلام . واسمه الحقيقي هو ادوارد شنتسلر وقد أوفدته الحكومة الالمانية لتوسيع حدودها الى ما وراء ممتلكاتها التي كانت مستعمرة ألمانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط في أيدي تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ؛ وكان في الثانية والخمسين من عمره . ولم يترك كتابا عن مغامراته ، وان كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة تتحدث فيها عن هوايته بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال انه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

وسألني الجرسون الذي أضحكه اسمي .. هل تعرف أمين باشا جيدا .

أعدت عليه السؤال عندما لم ألاحظ ما يدل على معرفته ابد.. الرجل فقال : أعرفه .. أنا اسمي أمين باشا محمد

قلت : **مسلم** .
قال : **أولادي فقط** .
قلت : **وانت ؟** ..
قال : مسيحي ..
قلت : **وزوجتك** ..
قال : مسيحية ..
قلت : **وكيف حدث ذلك ؟**
قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم أجد عنده تفسيرا .. ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيرا .. أن يكون الأب مسيحيا وأولاده مسلمون .. وحدث كثيرا أن يحتاج الانسان الى من يشرح له .. لا يجده .. ويسكت دون أن يفهم ! ..

الحمد لله .. شربت وأكلت وضحكت وأضحكت .. وجدتني بسرعة أبتسم أن مشكلة جديدة : أين ننام ؟

وقبل أن نفكر في النوم يجب أن ندفع ثمن الشاي .. والسندوتش والحلوى التي جاءت في حماية الشاي ونفسه ..

ويخرج الضحك من العمر عندما أخرج من جيبي بعض الفرنكات الكونغولية .. وحاولت أن أدفع .. وعرفت سعر هذه الفرنكات نسبة للنوبات .. برقية محطة مصر .. ولا أنسى من يأخذ هذه النوبات ويعطيها للجرسون في محطة روما .. ومضحكه .. وأنا معطلك ! ..

وكانت فرصة لأمين باشا أن يصر على أن يكون الحساب عليه هو ..

وشكرت أمين باشا وتمنيت له طول العمر والصحة .. [illegible] عامرا ..

وقبل أن نفكر في أين نذهب .. على نتفرج على المدينة .. [illegible] نام مبكرا في الطائرة .. وما دامت الفلوس الكونغولية لا نسمع به

الذي نعطله .. صير لنا رجل انجليزي .. أحد من رجال **المطار** ..

وسألنا من مصر ..

قلت : نعم !
قال : كم يوما ستبقون هنا .
قلنا : حتى الصباح .
قال : ما مشروعاتكم ؟ .
قلنا : أولا نبحث عن مكان ننام فيه .
قال : وثانيا ؟ ..
قلنا : نتفرج على المدينة .
قال هو في رأيه حاذق .. أدى عقد [illegible] ! .

وصحبنا معه دون أن نسأله من هو وما شأنه .. ولكن **لم يكن من** الصعب أن نعرف أنه أحد رجال السلطة جاء **لمرافقتنا بصورة رقيقة** .. وأخذنا في سيارته .. وذهب بنا صحبنا الى **أحد محلات البقالة** .. المحل هندي .. والهنود كثيرون هنا وفي كل المستعمرات **البريطانية الأخرى** .. واشترينا شيئا .. وفي المحل قابلنا عددا من **المواطنين** وسألونا عن بلدنا .. وماذا نصنع .. ومن الغريب أنهم **سألونا عن بعض** الصحف المصرية .. وبعض الكتاب المصريين .. **وعن موضوعات محددة** نشرتها الصحف المصرية انهم من طلبة **الجامعة** الأزهرية !

وانصرفنا .. في سيارة الضابط الانجليزي .. واتجه بنا الى **أحد الفنادق** .. وأوصلنا الى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا **ومن وقوفنا** أمام صاحبة الفندق .. ومن أننا كتبنا استمارات **الاقامة** وسجلنا أسماءنا وأرقام جوازات السفر .. وودعنا الرجل **وشكرناه** .. ووعدنا بالعودة في الصباح لمرافقتنا الى الطائرة .

والفندق من طابقين .. وككل الفنادق الاستوائية .. مليء **بالأشجار** .. وتمتد الزواحف من النوافذ .. [illegible] الحشرات **والعوض** بصفة خاصة .. وفي كل غرفة ناموسية .. وفي الطريق **الى غرفتنا** مررنا بالمطعم .. ثم [illegible] أجراسا وأدهشنا عندما **وجدنا المطعم** مليئا بالناس ولكن أحدا لا يسمع لهم صوتا .. وهم **جميعا بالملابس** الكاملة .. الرجال بالبدل والكرافت .. والسيدات **بالسواريه** .. ونحن قد ارتدينا ملابسه « العمرية » .. والبدو .. **والدفء** والأنوار الخافتة والأطعمة [illegible] والأكواب الزجاجية

الطويله .. والالوان على الجدران والمقاعد والستائر والمصابيح والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما على كل من عنده احساس أو ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر انه لا مفر من الذكريات المؤلمه على الاقل .. فعندما تأملت وجه السيده صاحبه الفندق .. كان الوجه مألوفا .. لا اعرفها .. ولكنى اعرف مثل هذه الملامح .. وسألتها : من اين

قالت : من القدس ..
قلت : العربيه ؟
قالت : لا ..
قلت .. وتتكلمين العربيه طبعا ؟ ..
قالت : طبعا ..
قلت : يا بجحة ! ..

ولم اقلها بصوت مرتفع .. فقد على بعض الزملاء على ملامحها وعرفوها .. وعلى انفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التي تزداد لحظة بعد لحظــــه .. وعلى انها سهت الى ضرورة التزام الهدوء .. الذى التزمناه بالفعل ! ..

وفى الغرفه وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالا من الفاكهه .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها .. واهم من هذا كله وجدنا الدش .. واهم من الدش وجدنا السرير .. واهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلا ..

كل شيء هادىء .. الغرفه نظيفه .. الالوان بيضــــاء السرير والغطاء .. والجدران .. والاكواب .. والألوان كلهــــا حمراء ووردية .. ومن النافذة تبدو الحديقه نائمة .. الاشجار مليئة بالاوراق والثمار .. والطيور برتقالية ولكنهـــا متنوعة .. والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الاشجـــار حتى لا يبدو مشرفا بالفعل ..

ودق جرس التليفون فى الغرفه .. ولم نمتد اليه يد .. فنحن لا نتوقع شيئا ولا احدا .. ونحن نعرف مقدما ما سوف يحدث . وان كنا نتمنى ان يحدث شيء يحملنا معى هنا يوما او يومين ..

وفى التليفون سمعت ان الضابط الانجليزى فى انتظارنا .. انه ضابط امن نشيط .. انه يريد ان يطمئن على ان سوف نسافر اليوم ، ولم يقل فى التليفون انه يستعجل احدا .. وانما فقط يريد ان يقول لنا انه موجود ..

وكان فى نية أحد الحاضرين ان يسأل عن فول مدمس .. ولكنه تراجع عندما تذكر هذه السيدة صاحبة الفندق .. واكتفى بالشاى والبيض والزبدة واللبن ..

وفى هذا الجو الاستوائى قررت ان اتناول افطارا من نوع خاص .. يذكرنى بأيام الهند وسيلان واندونيسيا .. فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الاخضر والاحمر .. وطلبت كوبا من عصير الطماطم المثلجة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا .. وبعض الموز الهندى .. وكوبين من الشاى الانجليزى «المعتبر» ولا بد من اضافة هذه الصفه لان لونه احمـــــر ذهبى ورائحته كرائحة العنبر الوردى ..

ووجدت فى هذا الافطار تعويضا سخيا عن كل ما حدث فى الاربع والعشرين ساعه الماضيه .. ورضيت عن الموقف ، واسترحت نفسا وجسما .. وكان هذا واضحا تماما فى مصافحتى للضابط الانجليزى الذى بدا أكثر انتعاشا منا جميعا .. وكان من الواجب ان اسأله كيف نام واين وماذا افطر صباحا لعلنا نعرف سر هــذه الحيوية والشباب واليقظه .. ولم أجد مبررا لذلك فالذى اشعر به ارضانى واشبعنى وامدنى بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هى التى نقلتنا وليس الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم ينطق بكلمة واحدة .. كأنه يتوقع ان نقول شيئا .. او كأنه يدخر فواه ليصفها فى عمله .. اما نحن ففى الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائره .. وتوقفت بجانبها الحلمى ذلك العجوز ادوارد وواضح انه ينتظرنا .. تماما كما يصنع عمال ومعى دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كان يصنعوا قرش شاى وقرشين سكر .. واشياء تافهة أخرى ..

وصافحنى الضابط الانجليزى وشكرناه وتقبل منا الشكر الذى يتوقعه ويستحقه .. اما كان السبب .. ودخلنا الطائرة .. واقفل الباب .. ودارت المحركات .. واسندنا الظهور المتعبة الى الجدران

الدائمة .. وهددنا اعداءنا .. وتعالت صواتنا بالضحك والكلام ولم نلتفت الى الكاس او المحصور ادوارد .. ولا نعرف كيف ان المسافة بين عنتيبة والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم انها استغرقت سبع ساعات ..

ومن النافذة رأينا القاهرة .. وهبطت الطائرة . وصافحنا الكابتن زمبله والمحجوز ادوارد .. وتركنا في مكان بعيد في المطار .. ولم يكن هناك ابة سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار .. وكانت المسافة طويلة ..

وفي وضح النهار ظهر اللاعبون جميعا .. وفي ملابسهم المتكسرة الملبدة بالبقع .. وفي احذيتهم التي تصبغت بالطين .. ودخلنا المطار وسألونا : من اين ؟

قلت : من الكونغو .

اما كيف خرجنا .. وكيف نزلنا .. وكيف صعدنا وكيف عدنا بالطائرة .. كل شيء تم بالليل وبسرعة .. بالليل هبطنا .. وبسرعة طرنا .. حيث لا حكومة .. لا جيش ولا بوليس .. وحيث البلاد مفتوحة كالسماء .. لا احد يعرف الداخل ولا الخارج ولا احد يهمه احد ..

اما شهادة التطعيم والحجر فهي التي فتحت الباب الخارجي الى البيت .. بينما ظل بعض الزملاء في الحجر الصحي اسبوعين آخرين .. فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية .. اي انهم سافروا الى الكونغو وعادوا في ثلاثة ايام .. ولكنهم لن يسافروا من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما .

وفي الطريق الى القاهرة سألني احد الزملاء .. هل ... ؟ قلت بصراحة واخلاص .. نعم أسافر الى الكونغو .

وكمن سمع ـ نكتة ـ بايخة قال الزميل .. انا عرفت انك سافرت معانا .. انت رحلاتك استعراضية !

ليست استعراضية .. ولكني اريد ان اعرف ان افهم .. ولم يتسع وقتي لكي أفكر وأتدبر .. وأتدبر .. فكانتا دعينا الى زيارة الناس قد دخلوا العراش يشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت عشرات من فناجين القهوة المعادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار .. وكل الذي دار بيننا هو اننا تبادلنا العطاء .. انا اسحبه منهم وهم يشدونه .. وعلمني التعب وعلمهم النوم ..

... وعلينا جميعا !

كانت فوق الجميع ..

أصبحت تحت الجميع ..

.. وتطلب علاجا دائما !

صنع في ألمانيا.!

.. سهر الليل .. ليلاس :.
www lilas com/vb3

أكبر غلطة لغوية !

كان ذلك في الحفلة التي أقامها متعهدو الارز في مدينة هامبورج .. جاء دوري في الكلام . فقلت : انني قد رأيت المانيا ٥١ مرة .. وفي كل مرة اجد تغيرا عجيبا .. الشوارع المنهارة المظلمة تحولت الى مسرحيات باهرة .. والعمارات كأنها اختفت تحت الارض بسبب الغارات الجوية .. ثم اعيدت الى وجه الارض .. ان الالمان يطبقون شعار دافنشي الذي قال : انني لا أصنع التماثيل التي اكشف عنها الحجر فقط .. انها معجزة ؟

وواضح من الذي قلته اننى معجب بالعبقرية الصناعية والمعمارية الالمانية ..

ولكن الالمان لم يفهموا هذا المعنى الذي قصدته .. فقد وقف واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة ياسيدي . ان المنديل الذي كنت امسح به عيني كنت امسح به انفي أيضا . انني حملت ابني وروحتي على ظهري من برلين حتى وصلت الى هذه المدينة ..

وجلس .. ولم افهم شيئا ..

وانتهت الحفلة . ولم أتمكن من ان استوضحه .. ولا أعرف اين المكان الذي اوجعته من جسمه أو من نفسه .. انني لم اتعرض الى قفاه او ظهره .. ولم اقل انه كالحصان يستطيع ان يجر عربة .. وان يحمل زوجته وابنه على قفاه .. ولم اقل انه من الواجب ان يفعل الانسان ذلك ..

وسألت عن سبب غضب هذا الرجل من اعجابي بالشعب الالماني ونشاطه الغريب . وكان الاعتراض على استخدامي لكلمة « معجزة » . انا استخدمت الكلمة بحسن نية .. وهو قد فهم شيئا آخر .. اما المعنى الذي اقصده فان الذي حدث في المانيا شيء لا يصدقه العقل .

اي شيء فوق العقل العادي . اي شيء يعجز عنه اي انسان عادي .. او اي شعب عادي !

اما الذي فهمه هو — وهو احد احفاد الفلاسفة الالمان كانت وهيجل ونيتشه — فهو ان المعجزة معناها ان السماء هي التي تدخلت في كل شيء . وان الشعب الالماني لم يفعل اي شيء . وقد يكون من المعاني التي خطرت على باله ان الامريكان — أي قوة خارجية بفلوسهم ومصانعهم — هم الذين انقذوا الشعب الالماني ..

والمعنى الاول لم يخطر لي على بال .. بينما المعنى الثاني وهو ممكن ، فلم يخطر لي ايضا على بال . وانما الذي احسست به هو هذا الفارق بين المانيا كما رأيتها في سنة ١٩٤٩ والمانيا التي رأيتها بعد ذلك في سنة ١٩٦٧ ..

وهذا الموقف يضعني في المكان المناسب لفهم اوسع واسلم للالمان .. فهم ماديون . مكتشفون .. او لكي اكون عادلا : اقول ان طريقتهم في الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضروري ان يتفق العالم كله من اوله لآخره معنا لكي نفهمه — او لكي افهمه — على النحو الذي يريحني ! ..

وهذا يجعل المسافر الى المانيا او الذي عاش فيها ان يسأل نفسه من هم هؤلاء الناس ؟ ماهو تعريف المواطن الالماني . ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقوة والطاقة على العمل والصبر والفلفلة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والاندفاع والغموض ..

واذا قارنت الالماني بالفرنسي وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاوروا مئات السنين .. ولكن مازال المسافة بينهما ابعد بكثير جدا مما بين باريس وبون .. فالرجل الفرنسي — من وجهة نظر الالمان — : مبهدل في مظهره ولكنه ذكي .. لاصبر له على العمل ولكن اذا عمل كان في غاية الكفاءة .. ولديه قدرة عقلية فذة .. وصحيح ان الفرنسي ليس عاطفيا كالالماني . ولكنه عاشق من الدرجة الاولى !

اما رأي الفرنسي في نفسه فهو انه اسمى واكثر انسانية ، ولكنه ينظر بحسرة الى الانتصارات العظيمة التي حققها الالمان في كل العصور !

تصادف ان ذهبت الى مدينة ميونيخ من عشرين عاما ، وكانت هذه

اول زيارة لالمانيا . . وكانت المدينة ماتزال محطمة . . ولكن ظهرت العمارات الجديدة والشـــوارع المسفلتة . . ثم كانت هناك محطة السكك الحـديدية المحطمة . . ووجدت غرفة فى بنسيون اسمه بنسيون « الشاعر جيته » . . واعجبنى الاسم . ولم تكن هناك اية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون . . تماما كما لاتوجد اية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان . .

والبنســـيون متواضع . ولكن من المؤكد انه نظيف . .

وعرفت في أول ساعة من دخولى البنسيون انه لا توجد حنفيات للماء . . فالعمارات منهارة . . ولم يتم بعد اصلاح وانابيب الماء . . اذن لابد ان اغســـل وجهى فى الطشـــت . . فهناك طشت وابريق وصاحبة البنسيون فى انتظار اشارة منى . . وجاءت وغسلت وجهى . . وغسلت قدمى . . وشكرتها . . ولم نعتذر عن الطشت والابريق . . فمعروف ان عـــندى نظرا . . فالبلد مهـدمة . . وهذا هو احسن ما نستطيع . .

وكان يسكن فى غرفة مجاورة شيخ فرنسى . واثناء الافطار تعارفنا وتحدثنا . . وصارحنى بالســـبب الحقيقى الذى جعله يرفض استخدام الطشت والابريق . . فقـــال : اننـــا تجاوزنا هـــذه المرحلة من مئات السنين . .

ولم افهم . وسألته : ماذا تقصد ؟

فقال : ان منظر الطشت يجعلنى اعود الى ايام الامبراطور نابليون الثالث . . وتلك ايام لا احبها !

بعبارة اخرى لا يعجبه الطشت والابريق . .

وانا لايعجبنى ولكن ما الذى يمكن ان اصنعه . . ان البنسيون على قدر فلوسى وفلوسه ايضا . ثم ان الناس هنا معذورون فى ذلك الوقت . ثم انهم لايقلون حضارة عن الفرنســـيين . . ولكنه فرنسى يعيش فى المانيا !

ولا هو احب البنسيون ولاصاحبة البنسيون احبت هذا الشيخ . . ولا كل الفرنســـيين !

وعندما سقطت المانيا سنة ١٩٤٥ فوجىء الماريشال الالمانى كايتل اثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع على التسليم . . فقال :

وفرنسا ايضا ؟

يعنى فرنسا التى هزمها الالمان سنة ١٩٤٠ فانسحبت كدولة كبرى ان هذا الوضع المهين لالمانيا : لم ينسه الالمان . . ولم ينسه الفرنسيون ايضا !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون ان تخفى شعورها . واشارت الى ذلك . .

وكان ذلك منذ وقت طويل . . ولكن الالمان الآن قد نسوا . . او حاولوا نسيان ذلك . .

والمانيا تغيرت معالمها . .

تغيرت المدن والمصانع والشوارع . وامتلأت المحلات التجاريه وانتقل العمال الى المانيا من كل الدول الاوروبية . . فالالمان عندهم كثير من الرؤوس وعدد قليل من الايدى . . فعندهم المهندسون والاسطوات والعمال المهرة ولكن ينقصهم العمال فقط . . الايدى فقط . .

ويظهر ان الالمان احسوا بان جيل مابعد الحرب ليس صلبا ولا متماسكا كما يجب , لذلك اضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتأهيل المهنى » . . واستخدموا فيها اساليب التدريب العنيف . . وبعض المدارس لجأت الى الضرب . .

اذكر انى حضرت احدى ولائم الغداء فى مصانع شركة «ديماج» . وقد حضر عـــدد كبير من الخبراء والاداريين . . وعدد من الشبان المصريين الذين يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف حال الشبان المصريين ؟

فاشار الى مهندس المانى آخر وطلب اليه ان يجيب . وهذه الحركة مألوفة فى المانيا . . فكل واحد يتحدث فى اختصاصه . . مهما كان هذا الاختصاص تافها . ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة انا لا احب هذا النوع من الشبان . .

يقصد الشبان المصريين . . وقال : انهم اكثر اهتماما بالفتيات الالمان . . انا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن نشترط أن يكون فى اوقات فراغهم . . انا لا افهم ما معنى ان يحمل كل واحد منهم صور نساء فى جيبه أو يضعها امامه فى الورشة . . !

واحمرت وجوه الالمان . واحسست ان شيئا غريبا قد حدث او

سوف يحدث . وان هذا المهندس الالماني قد احرجهم .. وان ليس من اللائق ان يصارحني حتى بكل الحقيقة ..

ودار همس وتحاورت رؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول انني صريح .. انا رجل عسكري .. ولا أحب الميوعة في التعامل . من اي بلد !

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد سببا بمصنع لكمال ... في عمله بالقوة وعاجله ..

ولا بد ان مثل هذه التربية المتدينة هي التي اعادت المانيا من قدميها . عملاقا صناعيا عاليا من جديد وظيفة دبلا في وراء الخارجية الامريكية .. ولا بد ان هذه الدولة هي التي جعلت المانيا تقف الى جوار اسرائيل .. في تسليحها وتمويلها .. وتعويض بذلك أرضها وملايين اليهود من الذين كانوا يعيشون بالعشرات الالمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفي أن يجد التاجر العربي عبارة صنع في المانيا .. ليشتري بدون تفكير .

وعلى الرغم من أن المصانع الالمانية الكبرى قد تفككت بعد الحرب وأرسلت الى دول الاحتلال الاربع .. ومسحت الارض قبل ذلك بالقنابل وقتل عشرة ملايين شاب الماني . فانهم استطاعوا أن يبنوا من جديد .. وحولها البيوت .. والمعاهد والمدارس والشوارع . وأصبح الالمان مثل اعداء الحرب . فهم يعصرون الصخر في ايطاليا وفي أسبانيا وفي اليونان .. ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم في كل مكان في العالم .. بل انهم أقرضوا أمريكا وبريطانيا ملايين الجنيهات الذهبية !

وهذا الوضع يضاعف من عقدة الشخصية الالمانية ومن تناقضها

بل ان هناك أكثر من المانيا ..

فهناك المانيا الشرقية .. والمانيا الغربية ..

وهناك النمسا التي تتحدث الالمانية ..

وسويسرا التي تتحدث الالمانية .

وكانت هناك دائما اقليات المانية في معظم الدول الأوربية في تشيكوسلوفاكيا . والمجر وبولندا . وكانت هناك مدينة دانزج الحرة ..

والمانيا عمليا دولة مفتوحة الحدود .. انتصرت وانهزمت .. احتلت بلادا واحتلت بلادها .. وحطمت وتحطمت .. في كل الحروب الاوروبية .. فهي مصدر كل هذه القلاقل ..

ولذلك فالالمان هم الشعب المكروه في كل اوروبا .

والناس ينظرون الى الالمان في البلاد المجاورة على انهم أناس متوحشون ..

اذكر انني كنت في احد المحلات التجارية في مدينة استوكهولم العاصمة . ولاحظت ان البائعات يتعامرن . وعندما نظرت استوضح اقتربت مني بائعة وقالت : انهم المان !

فانتابني شيء من الضيق .

ولكن الالمان هم عصب تاريخ الموسيقى في العالم كله .. فهم احفاد باخ وباخ وبيتهوفن وشوبرت وشومان واشتراوس وموتسارت .

ولكن الالمان لم ينبغوا في الغناء والاوبرات

ولم ينبغوا في الرسم ولا النحت ..

وهناك مثل يقول ان الانسان يعيش في الفلاسفة والموسيقيين في الغابات والوديان الالمانية .

والفلاسفة الالمان من كل الانواع : مثاليون جدا مثل هيجل وفخته . ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وانصار حياة مثل نيتشه . وانصار موت مثل هيدجر ..

بل انني وجدت في مدينة تيبنجن بيتا صغيرا سواتها جدا على نهر يتمشى في الاحجار . في هذا البيت اقام ثلاثة من عباقرة المانيا هم : هيجل وشيلنج والشاعر هيلدرلن .. وكان الثلاثة فقراء .. وكانوا يسكنون هذه الغرفة الصغيرة التي تحولت الى متحف ..

وفي هذه الغرفة عاش الشاعر الالماني هيلدرلن أربعين سنة .. وبعدها انتقل الى مستشفى الامراض العقلية ليعيش أربعين سنة أخرى

والسلالة مختلفون في تفكيرهم ! فهيجل رجل مثالي يؤمن بالروح المطلقة وبالامبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد . وفويرباخ رجل ملحد مادي عملي .. لا يطيق هذه التجريدات الفارغة .. أما هيلدرلين فهو عبقرية الشعراء الالمان وتعيسهم أيضا

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية .. ولم يكن يستطيع أن يمس أصابع فتاة من بصعوبة .. فقد كان عليه أن يعطي دروسا لاحدى الفتيات لكي يلمس يديها فقط .. ولما أحس أن الفتاة تنظر اليه بشيء من الاشفاق — في عينيه وهو مدرس فقير .. ولم يكن احد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنونا بعد ذلك — قرر أن يأوي الى مراتبه وأن يكتفي بهذا الشعور من جانب الفتاة .. فرجسية النية ... لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة !

وعندما ذهبت الى بيت الشاعر هيلدرلين كان الباب مغلقا خبطت على الباب فتحت سيدة تسألني ما الذي أريده .. وواضح من شكلي أنني لا أريد شيئا منها . وانما أريد ان أرى فقط أين كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم .. وهو مسكين من أحرى لان هذه السيدة قد اشترت البيت الذي كان يسكنه الشاعر . وفتحت السيدة الباب وأغلقته ورائي . ولم تقل لي كلمة واحدة وانما أشارت بيدها الى الغرفة الصغيرة المظلمة وهي غرفة ... بها سرير ومكتب ولا يوجد بها كتاب واحد ..

وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذي كان يسكنه الشاعر جيته في مدينة فرانكفورت . فهو بيت أمير الشعراء الالمان ووزير المعارف في حكومة فيمار . وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ..

وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بتهوفن في مدينة بون .. فالبيت كله من أوله لآخره قد خصص للموسيقار .. وكان الموسيقار يقيم في بعض الغرف الضيقة في الطابق الثاني .. ولا تزال هناك بعض الحلل والأواني .. وخصلة من شعره .. ومخطوطات بقلمه .. وتوجد هناك السماعات الخاصة التي كان يضعها على أذنه عندما أصيب في أذنه .. وهذه السماعات تسجل تطور

الاصابة عنده ... فما زالت هذه السماعات تكبر وتكبر حتى أصبحت في حجم بوق الجرامافون القديم .. أو حجم قمع الجاز الذي يستخدم في دكاكين البقالة في الريف .

وبيت بتهوفن أحسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت في مدينة سالزبورج بالنمسا . فهذا البيت قائم في السوق .. والسلم ضيق . والغرف مظلمة وضيقة أيضا ... وكل شيء في البيت الصغير .. أي على مقاس موتسارت .. فقد ظهرت عبقريته وهو طفل .. وكل شيء في البيت يؤكد هذا المعنى .. الطفولة العبقرية ..

:: سهر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

صنعت فى أمريكا : الجليطة !

الحفلات التى لم تعجبنى فى المانيا ــ هذا مجرد راى سائح يريد ان يرى ما يعجبه . وطبعا ليس عند المانيا اى استعداد ان تغير ما يعجبنى ومن أجل عيونى او لاننى حسبها انفقها فى المانيا كل سنة ــ لقد تحولت مطاعمها وحاناتها ذات الطابع الالمانى القديم الى قاعات أمريكية .

واذا اذكر اننى عندما دخلت الى « حانة صوبنج » الشهيرة التى هتلر كان يعقد اجتماعات الحزب فيها . كانت المناضد طويلة كبيرة . وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين .. متشابكى أيضا . مع انا لا يعرف بعضنا البعض .. واذا جاءت الجرسونة الضخمة والعفت بالاكواب والاطباق والتحوم على الموائد الطويلة احسست الايدى واشاركت وتشابكت .. واهتز الناس يمينا وشمالا مع الاهتزاز تلمس الاجسام والخدود والشفاه .. شفاه غريبة .. ولكنها تتعارف بلغة عالمية .. ونحتمى الوجوه فى عناق كله ابتسامة وسعادة .. والموسيقى تعزف الحانا لا يعرفها السائح الغريب .. وكما يفعل الالمان كنا نفعل .. نقفز على المناضد .. نقف .. نغنى .. نمشى .. يرقصون .. نرقص .. الاذرع ممدودة والشفاه حائرة . والابتسامات حاضرة والضحك اعلى من الموسيقى .. ولا احد يعرف احدا .

وعندما جاء قائد الاوركسترا واختارنى من بين كل الواقفين على المناضد صفق لى كل من فى قاعة صوبنج .. وسرت وراء المايسترو الى المنصة .. والموسيقى كلها تصفق لى .. ثم اعطانى عصا القيادة .. وصفق الحاضرون . وانحنى المايسترو بعد أن تركنى امام الموسيقى .. وعلى الرغم من انها نكتة .. لكن احساسى بأننى

عبث مايسترو بلا مؤهلات ولا مقدمات وفى يدى الموسيقى وكأنى نطة القيت فى الماء بدأت أخبط بيدى .. والفرقة الموسيقية تعزف الحانا جميلة . وراحت العصا فى يدى تعلو وتهبط .. وأنا فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الالحان التى لا أعرفها .. وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف .. وتقدم المايسترو واعطيته العصا .. وشكرته .. وذهبت الى مكانى فوق المنضدة الطويلة .. ولم التفت كثيرا الى التصفيق على الجانبين فلابد انه كان للعصا .. او للشجاعة العربية التى اكتشفتها فى نفسى .. ولاحظت ان الجهلاء اشجع من العلماء .

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضدة ووجدت المايسترو وقد جمع فرقته وانحنى فلاحظت ان الجميع يلقون بالفلوس فيها .. فهمت .. ومددت يدى فى جيبى وأخرجت ما به ووضعته فى القبعة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن اترك حانة صوبنج هذه سمعت موضوعا جدا اننى يجب ان اذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد اعطيت المايسترو كل ما معى من فلوس . وليس عندى ما ادفعه للتاكسى او الفندق .. واهون على نفسى ان ادخل السجن من ان اذهب الى المايسترو ..

وقبل ان أكمل هذه الجملة سألتنى فتاة ــ الله يخليها ويطول عمرها ــ ان كنت اريد ان استرد بعض اموالى من المايسترو . فهززت كل جسمى واهتز رأسى شمالا بما معناه . نعم .. الله يسترك ...

وذهبنا معا الى المايسترو . وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف واعطانى العشرين جنيها . وتركت له جنيها وشكرته .. وشكرنى اكثر .

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت . تبدلت .. فقد .. اصبحت كأية قاعة فى فندق كبير .. المناضد صغيرة منعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المشاه ــ تحت السقف قد امتلأ بالسحب ــ تحت .. والفرقة الموسيقية التى فقدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى عابة الاناقة والشياكة .. والعرق واصبح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن .. انه كالفرق بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة .. بيت العيلة عيشة وكل الناس يعرفون كل الناس .. او من

السهل أن يتعارفوا . أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه .. ولا سأل له بغيره .. فهذه الشاهد الصغيرة هي جزر معزولة في بحار من الطاقة والبرودة .. واختفى العالم وظهر الروك أندرول والتويست والجرك .. يرقص ..

ولم يمحني أيضا من الالمان هذه الواجهة الامريكية .. فمنه نجد الرجل طويلا عريضا بمضغ اللبانة وينقلها من اليمين الى اليسار . انه حتى لا يفعل ما تفعله امنا البقر عندما يمضغون العلف وينحشونه فيتركونه منكوما في جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل تعرف فقط أن الحركة القادمة سوف يصقها في وجهك ..

وعندما ذهبت الى صديق صحفي استقبلني بحرارة واجلسني بالضبط في مواجهة حذائه الذي وضعه على المكتب . وكان اذا أراد أن يتأكد من شيء قاله أو قلته انا يضع ما بين قدميه وينظر الى من هذا الاطار الجلدي . وكنت أعرف صورتي في عينيه لأني أرى صورته بين الجزمتين .. انها تتسع وتضيق .. وكان في نيتي أن اسأله ان كان في الاستطاعة أن أضع رجلي على المكتب مثله تماما .. ولو وافق لترددت لأني أريد أن أعرف ما الذي يضحكني به في حكاية الامبراطورة ثريا . فقد كان يضع في فمه سيجارا ضخما .. والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التي أعانيها لكي أفهم منه أي شيء .. صوته غامض . والسيجار يمص بعض الحروف . وما بقى من حروف يتساقط في المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح الجزمتين .. ثم بين الجزمتين .. ثم في المرحلة الاخيرة عند أذني التي لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن .

وكان المفروض أن أسعد طلاق الامبراطورة ثريا . فقد تقرر أن يعلن طلاقها من الامبراطور في وقت واحد في طهران وفي كولونيا حسب السفارة الايرانية .. وكان من رأيه أن أذهب الى السفارة وليكن ما يكون . وذهبت الى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع الشجر .. ورأيت ثريا بنظارتها السوداء .. ويبدو أن ثريا قد اختارت لون النهار والليل أيضا .. فقد كان النهار أسود والليل كذلك .. فلم أفلح في أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها .

ونصحني الصديق صاحب الجزمة ابانها أن اذهب معه الى صديقه

به نصعد في الصالون الذي تتردد عليه ثريا . وذهبت . وبهاما بلا .. وتعانقنا .. ولم أكن في حاجة الى أن أسأل عما اتفقنا عليه .. وفي اليوم التالي كان معي نسخة مكتوبة من الحديث التليفوني بين ثريا والامبراطور . وعلى حاشية الخط كلمات طروحي .. ياحبيب قلبي .. ياحبيبة قلبي .. الله امال انطلعوا ليه !!

هذه العبارة الاخيرة لم يقلها احد . انا الذي قلتها . واظن ان الحق معي . وتم الطلاق الامبراطوري ..

وعدت أطارد الامبراطورة .. هي في سيارتها وأنا في القطار .. وكانت مطاردة مضحكة .. تماما كما أطارد نصانا في أواسط افريقيا وأنا ما أزال في القاهرة .. كل ما أعمله هو أن أتجه فقط .. الى مكان الثعبان .. ولكن من المستحيل أن أصل اليه

ودعاني الصديق الصحفي أن أمر عليه في البيت . وذهبت ووجدته يتناول غداءه .. ولم يقل لي تفضل . لأقول له متشكرا .. سبقتك . مع انني لم أكن قد ذقت أي طعام .. ولكن أمام نذالته لابد أن أتخذ مثل هذا الرفض .. ولم يضحكني هذا الموقف لانه لم يمكنى أن أرفضه

ومثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة وكلها تدل على أن الالمان قد نسوا من النظام الدقيق في كل شيء . وبدأوا يحكمون القيود .. في نهاية يهونون الامر على أنفسهم .

واذا كان في ألمانيا شيء من الانحلال فهو من علامات العصر الحديث . في أوربا كلها .. ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال . أو ضعف جسمي أو نفسي .. فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية . والدول كائنات حية . أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التي حطمتها الحروب الاخيرة تكفر بالقيم والمبادىء .. لانها ضحايا المبادىء العنيفة .. ولابد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادىء .. أي تكون في حالة اجازة طويلة من المبادىء الاخلاقية والاجتماعية .. في حالة تمرد على الاوضاع .. على المجتمع .. على النفس .. ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف في الطابور .. والمشي على الخط .. والاتجاه الى المصانع والمكاتب والآلات والمراسم والمعامل .. ولايمكن أن تكون هذا التطور الهائل في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل في ألمانيا مجرد صدفة ..

او مجرد أنهم كنسوا الشوارع من انقاض الحرب فانكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والفنادق والكباريهات .. انها المعجزة. ـ أي حتى لا نخطيء مره اخرى ـ انه المجهود العبقري الذي قام به الانسان في مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال .. والمعجزة الابداعيه في العلوم ..

والألمان يعرفون هذا التفوق في انفسهم . ويعتزون بذلك . ففي المعرض الدولي الذي أقيم في بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت المانيا جناحا . وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل . دون أن يلفتوا اليها النظر .. كأنها شيء عادي .. أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء .. هذه اللوحة عليها اسماء الالمان الذين فازوا بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ في السلام و٧ في الادب و١٠ في الطب و ١٥ في الطبيعة و ٢٢ في الكيمياء !!

(عدد الفائزين بهذه الجائزة في القارات آسيا وافريقيا واستراليا رجلان أديبان .. أحدهما هندي هو طاغور .. والثاني ياباني اسمه كاواتا . وليس هذا كثيرا على الالمان .. ولكنه قليل جدا علينا .. اي على حوالي الفي مليون نسمة !)

ويبدو أن الالمان ايضا يدفعون الى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذي يدفعون به الى الثكنات .. وربما كانت الثكنات هي التي دفعت الالمان الى المصانع والى اثارة الحروب تماما كاثارة النظريات الحديثة في كل العلوم ..

فالالماني يحب النظام والطابور وعنده صبر عظيم .. وهذه المزايا تجعله عالما ، وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا في العلوم وصارما في القتال ..

والمانيا الان مجتلة في الشرق وفي الغرب حتى لا تنهض لها جيش وحتى لا تكتوي أوربا مرة اخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك تعرضت قواها الشابة وقدراتها الهائلة الى الانتاج .. الى البناء ..

ويتولى « ترويض » الشعب الالماني الامريكان .. ويتولى ترويض الامريكان على ترويض الالمان أعداء اليهود ..

فليس أسهل من أن نلاحظ ان اليهود عادوا الى المانيا بكل قوة وكل مرارة . وانهم بدأوا يضغطون على الالمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان .. وتعذيبهم واحراقهم بالالوف ـ واليهود يقولون بالملايين وهم كذابون طبعا ـ

ففي الكتب المدرسيه نجد الحياة في اسرائيل مقررة على الطلبة .. ونجد الحياة في المستعمرات اليهوديه من ضمن موضوعات الانشاء .. كما ان دور النشر اليهوديه أعادت كتابة التاريخ واظهرت الالمان امام انفسهم وحوشا وسفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب ان تظل خطيئة الى الابد .. وان الالمان يجب ان يعوضوا كل يهودي عن كل ما فقده .. فهم يطلبون تعويضات عن الاب والام والبنت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الاموال ذهبت وتذهب الى اقامة اسرائيل ..

كنت في المانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر احد المدرسين الالمان مع رجل يهودي في حانة وقال له ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا !

وغلت الصحف وقعدت . وأثيرت هذه القضية في البرلمان . واهتمت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل واعصاب الالمان . وادعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبد الناصر بان يعينه مدرسا للغة الالمانيه في مصر ـ يعني هذا الرجل على اتصال باعداء اسرائيل ، أي بمصر .. ومعنى ذلك انه اضطر الى هذا الموقف .. اي ان الالمان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض اجنبي

وحوكم المدرس وسجن !

ووزارة الخارجية الالمانية يفتح ويغلق حسب الطلب . واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية لالمانيا الغربية لانها دولة يحتلها الامريكان .. وبين الحين والحين تظهر علامات النازيه على الجدران والمعابد .. والحزب النازي الجديد عندما انتصر في بعض الولايات الالمانية انزعج الالمان . والصحف الامريكية . ورأوا في ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية ـ أي ضد اليهود

واليهود ـ كما هي العادة ـ يتولون مهمة افساد الشباب في العالم . وفي المانيا يديرون بيوت الدعارة والكباريهات ونشر الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريهات في المانيا يديرها يهود . وفي برلين وحدها يملك شاب يهودي اربعة كباريهات .. منها « عش » .. و « جنة عش » .. وهي أماكن لتجارة النساء من كل لون !

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاو .. المعسكر واسع محاط بالأسلاك العالية .. وحول المعسكر توجد قنوات المياه التى تفصل الأسلاك العالية عن داخل المعسكر .. وفى داخله غرف الغاز التى كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الألمان المسيحيين .. ويوجد معرض للصور .. صور المعتقلين وهم متجهون الى المحارق .. وصور للخطابات والمنشورات وأوامر الاعتقال .. والزوار قد مدوا أيديهم ليمزقوا كل صور هتلر ..

وتوجد مقابر لرماد الضحايا ..

والأرض فى المعسكر مفروشة بالفحم الأسود .. ليشعر الزائر أن كل شىء نار ورماد .. وهنا معبد يهودى .. ويقابله كنيسة ..

وكل يوم يضاف الى هذا المعسكر جناح جديد .. وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الأخرى .. والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان .. وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الأطفال .. حتى يشعر كل ألمانى أن أجداده مجرمون .. وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين ..

واذا حاولت أن تستوضح أحدا من الألمان قال لك: نحن بلاد ممزقة ومحتلة .. والأمر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا .. وغيرهم هم الأمريكان .. واليهود !

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! ..

الذين ولدوا ليعيشوا

أي ليشربوا ويرقصوا

ويلعبوا معظم الوقت !

إيطاليا.. للمرة العشرين

صوفيا وأخواتها

منذ عشرين عاما نشرت الصحف انني مســافر على ظهر الباخرة اسبيريا الى أوروبا ..

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر . فهو خبر عادي .. فمن الممكن أن أسافر أنا أو غيري الى اوروبا وعلى ظهور البواخر او الطائرات . ولكني ضحكت لانني سافرت على ظهر الباخرة فعلا وليس مجازا . وتحولت الباخرة الى حصان أو حمارة اوعربة كارو تحمل جوالات من الشعير وأنا راكب فوقها . فلم يكن سفري بالباخرة على اية درجة : لا اولى ولا ثانية ولا ثالثة . . وانما على ظهرها . . فقد صعدت الى الباخرة من ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباخرة ..

ولم يكن الليل قد جاء لافكر في مسألة النوم وكيف وأين .. ولكن انحصر تفكيري في اين اضع حقيبتي دون ان افقدها .. وعنــدما تحسست وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه .. ولا حتى كان المسافرون كلهم من المصريين .. ولا حتى الذين سيشاركونني ظهر الباخرة من المصريين .. ووجدت الكثير من الحقائب والصناديق والنــاس قد تكدسوا في كل مكان ..

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق .. فكرة .. وسمعت من يقول ان البحارة يؤجرون المقـاعد .. وانهم يصنعون خيمة في مهب الريح .. وانه من الممكن أن تنــام تحت هذه الخيمة .. ومعنى ذلك ان النوم ممكن .. ليلة وراء ليلة ..

اما الشنطة فهي استطاعتي ان أربطها في رجلي .. أو اضعهــا تحت رأسي .. هكذا قيــل لي .. ولكني عنـــدما أعدت النظرة الى الشنطة ندمت على انني اتيت بها .. فلا هي مليئة بالملابس .. ولا انا سوف املؤها بالملابس .. ولا ضرورة لها . وكان في امكاني ان

اشتري كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسي .. واذا انسحبت أو تمزقت القيتها في البحر . فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة . ولم يصنعها احد لأن ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف .. وتصورت معنى وقد ربطت هذه الحقيبة في رجلي . . ولســبب من الاسباب نهضت من نومي والحقيبة في رجلي .. وتخيلت الجنود الانجليز اثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الاحذية يربطون احذيتهم في صندوق الورنيش . فاذا حاول الجندي أن يطارد ماسحي الاحذية . فانه تتعثر قدمه .. وتتاح فرصة لماسح الاحذية ان يهرب ..

وقد حاولت في احدى المرات أن اهرب من مثل هذا الموقف فلم افلح .. فقد حدث انني دفعت احد البحارة مدافعة عنيفة عندما كانت الباخرة تمر في مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت ان انام في ساعة مبكرة .. وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة .. واحتضنت حقيبتي .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة في يدي .. وفي ساقي .. وفجأة احسست بمطر ساخن .. يغلي .. غزيره .. فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن .. وحاولت ان ابتعد عن مكان المطـــر العجيب .. وقد حاصرني المطر من اليمين والشمال .. وعند ساقي وعند رأسي .. وقفزت والحقيبة قد ارتطمت بي .. وتشكلت فيها .. ولم تكن هــذه امطارا ساخنة وانما كان أحد البحارة يلقي بالماء الساخن من ثقوب في الخيمة !

ولم يعجبني هذا القرار الملتهب فلم انم تحت الخيمة . . وقررت ان اظل طول الليــل اتفرج في الدرجة الاولى على الراحة التي ينعم بها بعض النـاس .. أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عيني كثيرا عن كلب بني اللون صغير قد نام على كرسي في الدرجة الاولى .. وهو مثل سيده قد ادار هذا الكرسي وادار ظهره للناس وللبحر . . اما سيده فهو الامير يوسف كمال الذي كان مسافرا معنـــا الى اوروبا . . ولكنه سافر آخر مرة ولم يعد !

وفي العـــام التالي سافرت الى اوروبا في جوف طائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات اي اثر في داخل الطائرة .. ولا حتى اية رائحة .. وانما ما تزال فيها بعض الحبال .. التي

تطورت في الطائرات الاخرى الى الاحزمة المعروفة والتي يربطها المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولان الحيوانات كانت تقف بالعرض في الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد .. لان هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس الناس الذين جاءوا لحمايته وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك عندما قررت شركة هذه الطائرات ان تحملنا طائرة وكاب ونقل الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما يجلس الناس في زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحبال مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث اي اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا ، وقيل في ذلك الوقت ان عددنا هو بالضبط العدد الذي يناسب العرض المطلوب .. خصوصا اذا كان هذا العرض هو الغرق في البحر .. فاذا اضفنا الى عددنا الكبير حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التي تحركت بها الطائرة من الارض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا اخرى من الجو .. اما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال انه بفضل دعاء الوالدين .. ولان عدد اليتامى بين المسافرين كان اغلبية ساحقة !

وكنت احدث اليتامى ، فقد توفي والدي منذ عام ونصف عام !

ولم يكن غريبا ان نضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران الطائرة .. ونجلس على ارضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت أوراق اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من ان أرضية الطائرة قد تغطت بقشر اللوز والبرتقال أو البيض .. ولكن من الواضح انها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية .. ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحركت المضيفة الامريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. ويشاركها ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الاشقياء .. وكانت المضيفة تضحك وتتربح من الرقص والانبساط .. ولا يمكن ان يتصور احد اننا في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه الى اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر في الساعة ..

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونطر ووزع اللعنات على

الجميع بالعدل اما المضيفة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا ان نجلس في اماكننا وان نربط الحزام - الحبل - والا نتحرك حتى تهبط الطائرة في مطار اثينا ..

وبدأت الطائرة تعلو وتهبط .. وتميل يمينا وشمالا وتنكفيء على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز ونرتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح في يوم شديد الريح .. وكانت النتيجة الطبيعية هي ان يصاب بعضنا بحالة من الدوخة والقيء والاغماء ..

وطالت الدوخة .. وبعض الطائرة في حالة من « المرمطة » .. الهواء او الضغط هو الذي مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلها بعد ذلك بالمطر ..

وعندما هبطت الطائرة في مطار اثينا .. ومشت على الارض . واقترب منها السلم .. وانفتح الباب لم ينزل منا واحد . فقد كنا جميعا في حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعده والمضيفة التي تغيرت ملامحها تماما . تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا ان السبب كان ابعد مما تصورنا .. او مما تصورت انا .. لقد كان السبب محجلا حقيقة .. يبدو ان احدا من المسافرين قد اعطاها شيئا مخدرا في سيجارة او في كوب شاي .. او بلا سيجارة او شاي .. قد جعلها لا تستجيب لاشارات الكابتن ومساعده .. وهذا ولاشك نوع من التخريب ! ..

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطيء البحر الابيض المتوسط ذهابا وايابا .. وعلى الرغم من انه لا توجد الا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء .. فان اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر مختلفا تماما .. فالسفر على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة الاولى .. والسفر في الدرجة السياحية في الطائرة غير السفر معززا مكرما في الدرجة الاولى ومجانا مثلا ! ..

ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم اعد اهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا اين اضع رأسي ولا اين

اسع رجلي .. ولو وضعت رأسي ورجلي في مكان واحد ــ كالعجين مثلاً ــ فاني لا اتردد في السفر .. فهو المتعة الكبرى التي تساوي كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب ! ..

⊙✥⊙

ولا اعرف اين ومتى وكيف التقيت باول وجه ايطالي .. في مصر أو خارجها .. فالايطاليون موجودون في كل مكان .. او استطيع ان اقول بشكل آخر : انه من الصعب الا نسمع ادنى كلمة واحدة ايطالية كل يوم ..

ففي المنصورة منذ ان كنت طفلا وانا اسمع على الاقل كلمة واحدة ايطالية يوميا .. فقد كان في بيتنا اسرة ايطالية .. وفي نهاية الشارع بقال ايطالي .. وفي الطريق الى المدرسة كنت اخوض طريقي بين عدد من التلامذة يتكلمون الايطالية ..

وفي سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الايطالية .. وعلى لهجتها وعلى طريقة النطق بها .. ولا اعرف لماذا اكتسبت لهجة ايطالية يصفها الايطاليون بأنها لهجة جنوبية .. ولم يحدث ان تحدثت الى احد من الايطاليين حتى ابدى دهشته من لهجتي الجنوبية .. لهجة نابلي وصقلية .. مع انني لم اكن رأيت لا نابلي ولا صقلية .. وهي لهجة اقرب ما تكون الى اللهجة الصعيدية عندنا .. وعلى الرغم من انني وجدت في هذا الرأي حطه تكريم لمجهودي الخاص في تكوين لهجة صحيحة ، فانني احسست بنوع من الضيق .. وهذا الطريق فاضطررت في كثير من الاحيان الى ان احمل صوتي رنينا والاعبه به موسيقيا .. ولكن كان رأي الايطاليين انني لم اغير لهجتي وانما غيرت فقط من حجم الصوت .. برغم صعيدي ايطالي ! ..

وانا لا احب الذي يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وان كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الايطاليين ، وكل سكان البحر الابيض لا يتكلمون وانما يرقصون ..

والايطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل اليك اذا لم تكن تعرف اللغة الايطالية انهم يتشاجرون .. واذكر انني كنت مسافرا

من روما الى فينيسيا في القطار .. ولم اجد مكانا . فظللت واقفا في الممر .. واخيرا عندما وصل بنا القطار الى ممر برنر وجدت مكانا .. ودخلت وهربت رأسي تحية للجالسين .. وتلمست طريقي بين السيقان الممدودة .. وفي الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ واعتدلت لاعرف ما هي الحكاية .. ومضى الرجل يتكلم عالي الصوت ولكن احدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا استنكر .. وجاء صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع .. اما هو فكان كالذي يجلس على كرسي في صالون حلاق .. يلف ويدور ويتقدم ويتراجع واحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من قفاه الى ظهره .. والذي يسمعه يوقن تماما انها خائفة .. مع انه كان يروي قصة كيف سافر من القرية الى مدينة روما وهو صغير .. وعلى قدر فهمي فانني اعتقد ان هذا الرجل ثرثار ــ وكل الايطاليين كذلك ــ لانه يصف لها مغامرات غير معقولة ..

وتعددت تعالت اصوات النائمين بالضحك .. وكانت اصواتهم اعلى من صوته .. انهم جماعة من الصعايدة الايطاليين .. ولكن حتى الذين ليسوا من صعيد ايطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء الا في درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالايطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة ايضا .. وهم يؤمنون بتشغيل كل الحواس .. انهم ابناء هذه الدنيا .. هذه الارض .. وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال في اوربا . فهم ينظرون الى كل شيء ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون .. اي شيء .. ومن النادر الا يجد الايطالي نكتة او نغمة في اي شيء ينظر اليه او يعمله او يتذكره او يعلق عليه .. على عكس سكان اوربا الشمالية .. ويبدو ان الايطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الاوربيين الآخرين . هم يضحكون وغيرهم يفكرون ويحزنون ! ..

ولا يوجد ايطالي واحد لا يغني .. ولا يرتفع صوته في اي وقت وفي اي مكان بعبارة من عبارات الاوبرات المعروفة .. فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من اوبرات : توسكا .. والتهامه الريفية .. ولا ترافياتا .. وعايدة .. وفرانشسكادا ريمني .. وفي الليل وانت نائم تجد صوتا يجلجل في الشارع : انه احد المارة يغني .. انه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحده الذي

يرقص أن يغني لأنه يحب أن يطلب اليه أحد أن يسكت لا لأنه مخمور فلا عقوبة على الخمر .. ولكن بتهمة أن صوته قبيح .. وهذه تهمة كبيرة .. كما تتهم أي مصري بأنه لا يفهم النكتة .. أو دمه ثقيل .. أو لا يحب الفول بالزيت أو الملوخية بالأرانب !

والايطاليون خبراء في الأكل وفي الحب .. فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والحمة والنبيذ والفاكهة .. والفقير جدا هو الذي لا يجد النبيذ .. والنبيذ كثير ورخيص .. والرجل الايطالي لا يشرب النبيذ لأنه «ترمس» ولكن لأنه يريد أن يفرفش .. ويضحك أكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من المكرونة التي يلتهمها الايطالي فان الأجسام الايطالية ممتلئة قليلا .. وقد وجد الايطاليون في ذلك مبررا لسلوك آخر .. فالايطالي يطارد الفتيات في الشوارع .. يطاردهن بلا تعب من شارع الى اتوبيس الى شارع الى اتوبيس .. فاذا لم يظفر بشيء في النهاية فلا يهمه .. ثم يستمر في المطاردة .. واذا سألته عن السبب قال لك : لا بد أن أمشي .. انها المكرونة .. فأنا لا أريد أن أكون بدينا .. ثم كيف لا أغني ! ..

أي انه يطارد الفتيات لأنه يريد أن يمشي .. وهو يريد أن يمشي لأنه يريد أن يفشل في المطاردة ليمشي على حينه بعد ذلك !

والحقيقة أن معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال .. ولا تضيق بها الفتيات .. بعد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد الرجل .. وفي ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال المتغيار — يباجالو — لأنه يمشي وراء الفتيات .. وان كان صوت المعاكس قبيحا .. فالمتغيار شتيمة مقذعة لأي رجل ايطالي ! .

ولكن الايطالي يسمع بحياته .. وبعواطفه أيضا ..

والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهي واضحة المعالم .. وبارزة الأنوثة .. الصدر بارز .. والأرداف ممتلئة .. والخصر نحيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر هذه الملامح الرومانية التي أضافت لها الحرية المطلقة أن تستمتع الى معان أخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على أن يمدوا أيديهم وشفاههم ويتذوقوا معاني الحياة .. كما يعطون على شواطىء الأنهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى أطراف الغابات ..

فهي جملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبلي .. وفي عينيها صفاء البحيرات وعلى رأسها أوراق وظلام الغابات .. وسيقانها وقوامها وسيرتها .. مستعارة من نعومة الفواكه والحرير والبلاستيك والطرق المرصوفة . والأغنية الايطالية تقول : المسيني بيدك .. تقمصيني بعملك .. واحتفظي بشعرك .. وادفنيني في صدرك .. واتركيني أتمدد الى الأبد .

وهذه الأغنية سمعها الايطاليون منذ وقت طويل

والأفلام الايطالية تشعب الى هذه المعاني التي تهم المتفرج

فمنذ ظهر فيلم « مرارة الأرز » بطولة سيلفانا مانجانو .. وأصبح العري على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة .. ففي هذا الفيلم سقطت سيلفانا في الوحل .. وارتفعت من الوحل لتسقط في كل مكان آخر .. والفئران تأكلها .. والفتيان يلطخونها والفتيات أيضا .. ونسي المتفرج أن الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل في ايطاليا .. ولكن المهم هو أن يرى اللحم الانساني عاريا ليلتهمه ساخنا .. وليس المشكلة الأساسية بعد ذلك .. لأن المشكلة الأساسية هي أن تحب ويأكل من يحب ..

وقد انطلقت كل الأفلام الأمريكية والعربية تعري الفتيات وتلطخهن بالوحل .. لتجيء رجل يتظاهر بالشهامة لغسل الوحل بالحب .. لأن هذه هي القضية ! ..

وفي فيلم اسمه « الخبازة » بطولة جينا لولو بريجيدا أعلنت البطلة في أول الفيلم " أن الخبز كنز الرجل الايطالي ومملكة المرأة الايطالية .. والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة !.

وهذه عبارة صحيحة ..

والأفلام الايطالية — أو على الأصح الجمال الايطالي — هو الذي أطلق صدر جينا لولو بريجيدا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالي .. وساقي سيلفانا مانجانو .. وشفتي الينورة روسي دراجو .. والصوت المبحوح النائم لسيلفانا بمبانيني .. وأصابع قدمي سكامبيو .. وغيرهن من صواريخ الشاشة الايطالية .. وليس النساء فقط .. وانما الرجال أيضا .. فالرجل الايطالي فيه رجولة ويكفي أن نذكر فيتوريو جاسمان .. وماستروياني .. وغيرهما كثيرون ..

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكبر والملكة التي تحول التماثيل من تصوير الاعماق .. الى تصوير العلاقة الخارجي الجميل والاتجاه الى الاعمــاق .. فكل الاعماق تبدأ من قشرة التفاحة وبشرة المرأة ..

واذا كانت المرأة الايطالية في الشمال شقراء ناعمة ، فان المرأة في الجنوب سمراء واكثر نعومة .. واذا كانت المرأة الايطالية في الشمال أوروبية ايطالية . فانهــا في الجــنوب ايطالية فقط عربية اسبانية .. محافظة .. والرجل هو السيد .. هو السيد للرجل وللمرأة ايضا .. ومن المناظر القريبة أن تجد الصغير يقبل يدي الكبير .. او تجد الجندي يقبل يدي الضابط .. او يدي العمدة .. كما يحدث في الريف عندنا وفي اسبانيا ..

ولكن الشعر العالي والرقة كلها في الجنوب .. فاجمل الاصوات واحسن مؤلفي الاغاني يعيشون في الجنوب .. ففي نابلي توجد اروع الاغاني الايطالية واكثرها اسى وعذوبة .. وفي صقلية توجد اروع اغاني الفلكلور .. واعمق قصص الحب كلها في الجــنوب .. بل واعظم أدباء ايطاليا من الجنوب .. من مثل الاديب بيراندللو من صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلي – صوفيا لورين ايضا وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورانساو وسالفا ميني وبرنكاتي .. وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين اهل الشمال واهل الجنوب .

ومن العجيب ان احدى الصحف قد نشرت مرة هذا الاعلان : لاشيء يضيع عندنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب .. واذا تحطمت الزجاجات سفرناها الى الجنوب .. واذا اختلف موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة في الجنــوب .. انما نجد لكل سلعة من يشتريها في الشمال . فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وشعبان : اغنياء في الشــمال .. وفقراء في الجنوب ! ..

ولكنهم فقراء ظرفاء .. واجمل ما في هؤلاء الفقراء مشاعرهم وحناجرهم ! .

اذكر انني اقمت في مدينة باليرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت . وفي احد الايام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء باليرمو . وحضر

لي ان ارتدي الملابس الوطنية .. البنطلون الصيفي .. المفتوح تحت الركبة .. والقميص المفتوح عند الصدر .. والربيطة الكبيرة المصنوعة من سعف النخيل .. وعلقت سلسلة في عنقي .. والسلسلة مكتوب عليها اسم فتاة .. لا أعرف من هي الفتاة .. ولكن السلاسل تباع في الشوارع جاهزة : باسم الفتاة وعنوان وهمي واسم اغنية معروفة في ذلك الوقت .. ومررت امام الصندوق واشتريت سلة من التفاح الجميل .. ورأيت سيدة عجوزا تبيع النبيذ .. وهددت يدي واشتريت وجاءني طفل عاري يبيع الكعك والجبنة .. فاشتريت .. وقالتني سيدة فيها شبه كبير جدا من اذا بلغت الثمانين فما عدا ان لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورود .. وهددت واحدة . وشكرتها .. وشكرتني ..

والصورة التي امامك الآن هي صورة لسائح يشبه السياح الخواجات الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر الى الامام .. ويركبون الجمل ويشترون الشباشب الزنوبة ويعلقونها في رقابهم .. ثم يلفون منديلا حول العنق وشالا حول الخصر .. ويستعدون لأي نفر على أية ضبلة لم يقعوا ويهزوا بطونهم . ثم يضعوا في جيوبهم سندوتشات الفول .. اي انهم يحاولون أن يكونوا غربين الشبه جدا لعصابات المصريين التي جاءت في الكتب السياحية في اوروبا وامريكا .. ودخلت احد المطاعم ونهض صاحب المطعم وقال : بون جورنو .. ورددت عليه .. وقال لي اتفضل .. وساعدني على نقل مقعدي ووضعه على كرسي آخر .. وساعدني على وضع الورود في اناء جميل .. ووضع الورود امامي .. وجاءت زوجته بمفرش رائع ووضعته على المنضدة .. وجاءت ابنته واخذت التينة والكعك .. وجاءت ابنته الصغيرة وراحت تمشط شعري .. وتختار لي وردة وتضعها حول أذني .. وجاء شاب طويل وسيم .. ومد يده الى السلسلة التي في عنقي .. ورأى اسم الاغنية .. وقال سعيدا . أن دونا واحد ..

ومن المؤكد انني كنت سعيدا .. ولكن لا اعرف مناسبة لذلك كله . لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا – لا يهم ابدا . واعتقد أن هذا الموقف السعيد قد اثر في نفسي زمنا طويلا .. فقد قررت بلا وعي مني ان اكون سعيــدا والسلام .. واجمل ما في هذا القرار انه قرار جسمي .. اي ان جسمي هو الذي اتخذه مستقلا عن عقلي .. وهذه نعمة من نعم الله .. أن يكون للجسم قرار واحكام لا يستأنفها العقل ؟

والتف هؤلاء الناس حولي . . وجاءوا بمقاعدهم . . وكل واحد جاء بطعامه وشرابه . . وجعلنا نأكل ونضحك . . ونتبادل الرجل واولاده الرقص . . والغناء . . ونشترك معا في هذه البهجة . . ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه ابحث عن محزون . . لابد ان يكون هناك واحد محزون – يغني ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح . . لم أجد أحدا محزونا . فالضحك صادق . . والسعادة مؤكدة . .

ولابد ان يسألني احد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث اي شيء بعد ذلك . .

لقد كنت اول زائر لهذا المطعم في احد الاعياد المقدسة . . وقد تفاءل الناس بزيارتي . . وعبروا بالرقة والكرم والقبلات على الوجه وعلى الاكتاف . . وعلى اليدين . . والشيء الذي ضايقني عندما عدت الى الفندق هو كيف انني لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها . . وكيف انني كنت متفرجا ولم اكن ممثلا مندمجا في الدور . . او حتى متفرجا متحمسا . . والعجيبة انني لم اكن اعرف المناسبة . . وانما هي مجرد الصدفة . . لقد تصادف انني قررت ان اكون ايطاليا في نفس اليوم الذي تحتفل فيه الجزيرة بعيد احد القديسين . . وما اكثر القديسين في ايطاليا !

ومثل هذا المشهد في الجنوب لا يمكن ان تجده في الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولا يمكن ان يحس الانسان الا نادرا في حياته انه يحيى تحت جلده اجمل ما في الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وأبدية اللحظة التي يعيشها "

والرجل الايطالي الذي يرقص ويغني هو نفسه الذي يقتل ويسرق وينهب . . وهو ايضا الذي يذهب الى الكنيسة ويصلي . . بنفس الحماس والحرارة والصدق !

وايطاليا هي بلد : ماركوني مخترع الراديو . . وبلد آل كابوني المجرم الاميركي . . وبلد كازانوفا العاشق الولهان . . وبلد الفاتيكان . . ومهرجانات السينما ومهرجانات الاغاني . . وسباق السيارات . . ومعرض « البيانالي » في البندقية . .

وايطاليا تشتعل من الشموع في كنائسها اضعاف ما تستهلكه اية دولة

اوربية . . لكثرة الكنائس والقديسين . . ولكثرة المترددين على بيوت العبادة . .

ومن الحوادث المشهورة انه في سنة ١٩٥٢ هزم حزب ديمقراطي في الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من احد التماثيل في مدينة سيراكوزه في صقلية . . واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكي القديس – ملايين الناس وملايين الصور . . واقيمت المطاعم والفنادق . . وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من اجل دموع القديس . . وبعد ذلك بشهور سالت دموع اخرى لقديسين آخرين في مدن مختلفة . . وتحولت السيارات والطائرات والركاب الى حيث الدموع الطاهرة اللامعة في ضوء ما لا نهاية له من الشموع !

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فان الايطاليين ايضا ليسوا متمسكين بالدين . . ففي ايطاليا اتجاهات دينية قوية . فيها الفاتيكان . . وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها اكبر حزب شيوعي في اوروبا . . وفيها جمعيات ادبية متحررة . وفيها هيئات توصوية

وفي ايطاليا ادباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية . .

وقد ضحكت ايطاليا كلها مع فيلم « دون كاميللو » الذي قام ببطولته الممثل الفرنسي فرنانديل . . والفيلم من تأليف الكاتب الايطالي جوارسكي الذي دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة . . ولكن ايطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذي يسخر من نصف المعرضين عليه . اي من القساوسة !

ولم يكتف المؤلف جوارسكي بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه « عودة دون كاميللو » . .

وظهر فيلم ثالث اسمه « بيبو وفيوليتا » . . اما بيبو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية . . وفيولتا هو اسم « الحمارة » التي اشتراها الغريب لهذا الطفل . . وقصة الفيلم الذي شاهدناه هنا في القاهرة ان الحمارة مريضة . . والطفل يريد ان يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشسكو . . وهو الرجل الذي احب الطيور والحيوانات وكان يمشي حافي القدمين . . وهو الذي تنتسب اليه جماعة الفرانشسكان الذين يحلقون شعورهم ويمشون حفاة . . او يرتدون الصنادل التي تعري القدمين كما كان يفعل القديس فرانشسكو ورغب الطفل ان يدخل الكنيسة بحمارته .

وامام رغبة الطفل ومع قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس فرانشسكو قد رسمت عليها صور للطيور والحيوانات . . ويلجأ الطفل الى البابا . . ويناقش البابا والكرادلة فى هذا المطلب الغريب للطفل . . ويرون أنه لامانع من دخوله هو وحمارته الى الكنيسة . ويدخل الطفل مع حمارته . . وتعثر قدم الحمارة فى كنز فى داخل الكنيسة . . وهذه النهاية للفيلم هى التى تجعل المعنى الاخلاقى واضحا : وهو ان الكنوز تتفتح للمتواضعين والمؤمنين البسطاء . . ايمان الاطفال ! . .

ثم هجوم سينمائى على هذا الفيلم . . ومناقشة فيها كثير من الاستخفاف للقصص الدينية . .

وكل هذه المتناقضات الحيوية الحارة موجودة فى ايطاليا وفى الشعب الايطالى . .

طلياني بين الصعايدة !

أولاد شوارع . . بكل معنى الكلمة فى كل الشعاب . . فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافىء الى الشمال المتجمد . . جعلتهم يعيشون بالساعات فى الطرقات والساحات . . وفى الشوارع المرصوفة الناعمة . . وجعلتهم أصحاب أكبر عدد من المقاهى والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة والضخمة فى أوروبا كلها . .

وكلمة « شارع » تتردد كثيرا فى أسماء القصص والافلام لان الشارع ملتقى حيوى لكل الناس . .

والشارع تتغير معالمه فى كل ساعات الليل والنهار . .

ففى الصباح المبكر نجد الشارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار والدخان . . فالسيارات كثيرة وسريعة ومدوية . . وكذلك الضجة الصاخبة . .

وبعد ساعة تمتلىء الارصفة بالمشاة المسرعين . . كل واحدة وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات امام محطات الاتوبيس . .

وبعد ساعة أخرى يجىء دور الارصفة . . وعلى الارصفة تختمع المقاعد الملونة والمفارش النظيفة . . وأكواب الماء . . والشاى والقهوة . . ويجلس الناس على المقاهى ويتحلقون بعضهم لبعض . .

وبعد الظهر تتحول الشوارع الى سوق ومهرجان وترسانة للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء . . والصراخ والاصطدام والمناكفات . .

اما بعد الغروب فالشارع والارصفة مهرجان . . ومعرض للازياء والجمال الايطالى . . لا أول له ولا آخر . . وتوجه مؤكدة اذا فررت — بسبب قلة العقل والجشع — ان تتابع كل الاشكال وكل الاحذية وكل الاذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو تتلقى اثرا . . او تطلق اشارة او تتوقع اشارة . . واحسن نصيحة

لك هي أن تفعل بالضبط مايفعله رواد الفضاء أن تستلقي على ظهرك وتترك نفسك في حالة انعدام الوزن .. وتعود الى الفندق بعد ذلك بتبلغ ما تستطيع من الحبوب المنومة .. واذا كنت سعيدا رأيت شيئا ما في أحلامك يعوضك عن الحرمان بكل ألوانه الطبيعية ! .

وفي ساعة متأخرة من الليل .. يصبح الشارع أسود لامعا مغسولا باردا .. ويقذف اليك الهواء بالموسيقى والروائح العربية من كل جانب .. وينتهي بك الشارع عادة الى نافورة .. لايوجد شارع لايصل الى نافورة .. وهذه النافورة هي دش دقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. أو حرارة الجوف .. وأنت حر بعد ذلك أن تدير ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال الليل .. الذي يلقي ظلاله الحالمة الرقيقة على الوجوه الجميلة .. أو على حركة الجمال الرشيق في الشارع من رصيف الى رصيف .. أو من الرصيف فجأة الى سيارة ذات فرامل صارخة — وما أكثر السيارات التي تتوقف فجأة وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقي بنات الشوارع الى الشوارع ..

وأنت ماتزال حرا في أن تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل الى ملابسك .. فللماء في هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك اليأس ..

وهذا الليل في ايطاليا هو أبو المساكين والمحرومين والمتكبرين .. لانه أب للجميع فهو قادر على أن يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين .. وفي الميادين وعلى المقاهي .. وفي الأركان المظلمة وفي مداخل البيوت .. وفي المصاعد التي تقف في الظلام عند الطابق الأخير وتتسع الأبواب دقائق .. ثم يجود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى أصوات العائدين الى بيوتهم — وتدور بينهم وبين رجال البوليس أحاديث ومناقشات وغرامات ولمزات .. يقول عسكري البوليس :

— الى أين ؟

— وأنت الى أين ؟

— عندي موعد غرامي .

— يابختك ...

— سمعت هذه العبارة من أمي ومن أحد اللصوص ..

— لقد كانت أمك على حق .

— وأنت ما الذي تعرفه عن أمي ؟

— إن واحدة تأتي الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم

— أشكرك ..

— ولكن الأم التي تأتي بواحد مثلك يجب أن تندم مدى حياتها الثانية بعد الموت .

— وكيف ذلك ؟ .

— انت تجمع بين ماتقوله أمك وبين مايقوله لص .. دون أن تفرق بين المحترم وبين التي أجرمت أنت في حقها ..

— ومن الذي قال انني أتحدث عن اللصوص ..

— انت الآن ..

— آه .. انت فهمت أن هذه الكلمة معناها لص .. ان معناها السيدة المحترمة .. فهذه الكلمة عامية عندنا في الجنوب .. فكيف لاتعرف ذلك وأنت من الجنوب أيضا !

ولكنه قد نسيت انني من الجنوب .. ففي الليل يصبح أهل الجنوب مثل أهل الشمال .. مجرد أشباح جائعة تروح وتجيء ..

أذكر انني عندما قرأت قصة « فتاة روما » لصديقي الأديب الايطالي البرتو مورافيا .. هزتني هذه القصة .. وطلبت منه أن يريني هذه الفتاة التي استوحى منها القصة .. أو أية فتاة شبيهة بها ..

وضحك الأديب الايطالي .

وضحكت أنا أيضا لسذاجتي الفاحشة .. فأنا أيضا أكتب مثله .. وأتخيل .. وليس من الضروري أن تكون للصور التي أرسمها أي وجود في الواقع .. بل ان الأدب الواقعي ليس هو الأدب الذي ينقل الواقع نقل مسطرة .. ولكنه الأدب الذي ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن .. ونحذف منه ونضيف اليه مانعتقد ..

ولكن على الرغم من ذلك كنت أقف في ميدان ابسدرا القريب من محطة روما .. وأقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة « فتاة روما » تقف هنا .. وعند كشك بيع الصحف .. وكانت تتوارى من البوليس .. مسكينة كانت جميلة .. رقيقة فقيرة .. ولم يكن عندها ماتبيعه

غير هذا الجسم .. وعندما قررت ان تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية .. نهايتها ونهايته ..

وقبيل الفجر ساعة يجمع الليل بقاياه من كل شيء .. الناس يختبئون في بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة .. ويظهر الكناسون بالمئات .. ويكنسون امامهم اكداسا من مخلفات معركة الامس .. وهي معركة كل يوم .. العلب والزجاجات الفارغة واوراق الصحف والفواكه ويغسلون الارض .. او يغسلون الارض التى تلمع كأنها سقف او كأنها جدران .. او كأنها اطباق تأكل عليها مدينة روما .. تأكل اهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. وتذوب السنين .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديدة النهم .. تأكل ولا تشبع .. تشرب ولا ترتوى .. تمضغ وتستمر .. ولكنها تستمر اكثر واكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العشق جاهز .. والشيطان جاهز .. الموسيقى هى الهواء والماء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هى القمر الذى يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. في كل ساعة ..

في احد الايام كنت في مدينة فيرونه .. واخترت مقهى في ميدان الكاتدرائية .. المقهى واسع عريض .. أنيق جميل .. فخم .. واخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدى الذى يصنعونه حتى لا يهرب الزبائن .. او حتى لا يهرب الى الزبائن اناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكى تكون الموسيقى هادئة بعض الشيء .. فاسمعها اذا اردت واتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون ان الموسيقى مقررة عليهم .. وأنهم كأفراد الاوركسترا .. ولكنى قررت ان أكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب ايضا ..

ولما سألنى الجرسون - سيدى ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت انه يسألنى ويرد على بصورة آلية .. تصابعت . فهو لا يعرف ان المال الذى معى قليل .. وانى قررت ان اجلس هنا وان استمع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذى ادفعه تافها , والبقشيش الذى سيتقاضاه تافه . فان هذا المبلغ كبير بالنسبة لاموالى .. وانه ليس من حقه ابدا أن يقف الى جوارى ولا يرانى .. وان يستمع الى دون ان يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى التى حلقتها بعناية .. وملابسى النظيفة الانيقة والتى تدل على انى احسن على درجة من الثراء .. اى انى قادر على ان اعطيه بقشيشا اكبر . ولكن ما هو هذا البقشيش الذى سوف ادفعه .. انه لا يزيد على عشرة قروش .. ولتكن عشرة قروش فما الذى اريده ان يفعل بهذه العشرة او هذه العشرين ؟ اريده ان يعرف ان يحترمنى .. فقلت له : لا اريد شيكولاته ..

ـ حاضر .

ـ وان تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

ـ هى الوحيدة التى عندنا ..

ـ اما البسكويت فهو الذى اريده بالشيكولاته .

ـ هو الوحيد الذى عندنا ..

ـ وهل من الممكن ان ادعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .

ـ ممنوع .

ـ انها طفلة صغيرة متسولة ..

ـ لانها كذلك يا سيدى .

ـ ماذا اصنع .

ـ انا متأسف .. ممنوع .

ـ ولكنى مصر على ادعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية

ـ مواطنة ايطالية ؟ !

وتركنى .. واتجه الى داخل المقهى ..

ولا أعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت امامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصور الدينية وتماثيل للطيور وحيوانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو انى لا اريد ان اكون مجرد « كتلة » تشغل احد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم على اى مقعد ..

ثم يسألها دون أن ينظر إليها .. ثم يختفي ويعود بالطلبات .. فهو عمل آلي .. وهو آلة .. والزبون شيء .. أي شيء ..

وتضايقت من أن أظل « شيئا » مدة طويلة ..

فأنا شيء في كل مكان أذهب إليه .. لا الفندق ولا الأدب .. ولا المقل .. فرأى صاحب التلفون فيختفي وإسمه في الورق يبحث لي عن جواب أو عن رسالة أو يعطيني مفتاح الغرفة .. وبحركة آلية يقول : صباح الخير .. أو أصبح على خير .. أو يقول تعليقا مضحكا .. وعندما يطلبني التليفون فإنه لا ينطق اسمي وإنما يقول " نمرة ٢٠ هنا .. أو ليس هنا .. أو يقول : آه الفيلسوف هنا .. آه لقد خرج في الصباح فيلسوفا ولا أعرف كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. أو يقول آه .. كتب أخرى .. لا أعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. أو يسمعها .. آه .. من نمرة عشرين آه ..

ولذلك قررت ألا أكون شيئا في هذا المقهى .. وأن يكون بيني وبين الجرسون كلام .. وأن أثير قضية .. وأن تكون هذه القضية محلولة لأحد منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل أحد ينابيع الوجود الأخلاقي .. والاجتماعي .. وهذا الموقف اجتماعي وأخلاقي ..

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفي عيني المدير رجاء بألا أفعل ذلك .. وأنه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أي طعام على حساب المحل ..

ولم أكن أريد أن أدخل في مناقشة .. وإنما فقط أن ينظر لي أحد في عيني .. وأن يسطيع ما أقول .. ولذلك لم أتمسك بموقفي ..

ومددت يدي خلال السور الحديدي أعطيها شيئا ..

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لي مدير المحل : اشتر منها أي شيء .. فهي بائعة صغيرة جميلة .. ويحب أن تكون بائعة .. وإذا تعلمت وكبرت فأنا أعدها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا في داخل المطعم ..

ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت يدي تتسرى وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير ..

وشكرني المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الآيس كريم فأنني أستحق التكريم .. وكرمت نفسي .. وانتقمت من الإيطاليين الذين جعلوني « شيئا » سياحيا متواضعا

ولكني قبلت أن أكون شيئا وأقل من شيء عندما ذهبت إلى جزيرة كابري وفاتني الباخرة العائدة من كابري إلى نابلي .. ولم يكن معي جواز السفر .. فقد تركته في الفندق في نابلي .. ومعنى ذلك أنني لا أستطيع أن أبيت في أي فندق .. ولا في أي بيت .. ولا أستطيع أن أمشي في الشوارع حتى الصباح .. فكابري ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة جدا .. أو هي طرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا أستطيع أن أركب حنطورا يطلع وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكنا في فرنسا .. أو في اليابان أو في هونج كونج .. ولكنه ليس ممكنا في كابري .. ولم أعرف كيف أتصرف بسرعة .. ولكني قررت أن أتخلص من الموقف الصعب .. فبعد الثانية عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل أبوابها .. ولكن الكاريهات ما تزال مفتوحة .. وبعد الكاريه ما الذي أستطيع أن أفعله حتى الصباح .. أو حتى الحادية عشرة عندما تعود أول باخرة إلى نابلي .. إنها ساعات طويلة جدا على الذي لم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جدا في كاريه من الدرجة الثالثة خرجت إلى الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع .. وليس في الإمكان أن أتحدث إلى أي أحد .. وأحاول أن أكون ظريفا .. وقد أنجح في المحاولة .. ولكن لا يمكن أن يكون أي أحد ظريفا معي ومتسامحا لدرجة أن يقول : ياه .. بس كده .. تعال واعتبر البيت بيتك .. أنا سأترك لك سريري وأنام في المطبخ .. خذ راحتك !

أو يقول : آه .. طيب ممكن تنام في الصالون ..

أو يقول : أعطيك مقعدا وتجلس عليه أمام الدكان .. وقبل أن تشرق الشمس يكون الشاي والسندوتش تحت قدميك !

أو يقول : ألا تزعم أنك قرأت كثيرا في كتب الشطرنج .. ما رأيك في أن نلعب دورا حتى الصباح ؟

أو يقول : ضع يدك في جيبي وأنا أصرخ .. وأقول : حرامي .. وإذا لم أجد أحدا يمسكك .. فأنا أمسكك وأتركك في القسم حتى

الصباح .. وفى الصباح اعتذر لك عما حدث واقول انى كنت محموراً !

وطردت هذه الاوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب .. وانفتح الباب .. ولم ار أحداً .. وفتحت عينى جيداً .. ولم ار احــــداً .. وقلت للظلام الذى انفجر فى وجهى من داخل الباب الصغير : مساء الخير ..

وسمعت صوتاً يرد التحية .. وضاءت النور .. وظهرت لمبة كهربيه .. وعلى العتبة انحنت سيدة عجوز ..

ـ هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

ـ بيت جوار السور .. وأريد ..

ـ ادخل .. واقفل الباب وراءك ..

ودخلت واقفلت الباب ورائى .. واعرفنى النور .. اكثر .. وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شاباً اعتقد انه هندى .. قد نام على الارض بعد أن خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز تنام هنا ؟

قلت . لا .. اساعدك ..

وضحكت وهى سعيدة : انت ولد طيب !

وكانت هى أطيب منى عندما قدمت لى كوباً من القهوة السادة .. ثم كوباً آخر .. وانشاء وقوفى فى المطبخ وراء طابور طويل من الاطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وصفيات الماء تغلى من ورائى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول نصيحه يا ولدى .!

وتوقعت لاستمع شيئاً جادا .

فقالت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه .. وكل كلمه تقولها للمراة هى حق مكتسب لهـا .. فالمراه قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد الا افعالا قليلة جدا .. لذلك فهى لا تكاد تسمع الكلمه حتى تتعلق بها كانها آخر طوق نجاة فى الدنيا ..

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح اكثر .

فقالت وهى ضـــاحكة : انت الآن طبعا نادم على انك اعلنت عن رغبتك فى مساعدتى هنا .. اذهب الى هذه الغرفة وحاول ان تنام

ثلاث ساعات .. سأوقظك فى السادسة ..

وتركتنى نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحوت من نومى لم احد احـــدا فى البيت ولا حتى الشاب الهندى ..

وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت .. مناديلى وجواربى وقميصى ..

ما اسمها ؟ من هى ؟ اين هى ؟ لا اعرف الآن .. ولم اعرفه حتى فى ذلك الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها ام طيبة .. بل انها الطيبة كلها !

وكان لابد ان انتظرها حتى تعود .. لكى اشكرها بكل ما تجدد فى جسمى ونفسى من حيوية

وجاءت السيدة وكانها لا تريد ان تعلق على ما حدث او على وجودى . وانما قالت كانى احد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت . شكرا لك !

وضحكت سوف تنسى ..

وقلت انا سوف انسى .. وانت ليس عندك ما تذكريه ؟

قالت : هذا ..

اى هذا الذى صنعته لى .. او هذا الشخص الذى هو انا ..

وعادت تقول انك لم تكلفنى شيئا .. انا أعيش وحدى .. والبيت خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحبشة وانا قد اتخذت هذا القرار .. وهو الا أقفل بابى فى وجه احد .. وهذا هو السبب فى انى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون ويقولون - ان الباب مفتوح دائما .. وانا غير موجودة دائما .. لانني أذهب الى السوق وأشترى كل شيء لنفسى .. ولذلك اترك المحل معظم الوقت .. ولم يختف منى بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحته واعطتنى طاقية من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على راسك .. انه يحميك .. ويرحم روحه فى السماء !

⊙❖⊙

ولا اعرف كم من المرات ذهبت فيها الى ايطاليا .. ربما عشرين .. ربما ثلاثين مرة .. فهي في الطريق الذهاب الى دول الشمال .. وفي طريق العودة ايضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تحمل طعم ايطاليا كالحلو . ولا مذاقها كالملح .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية اعتادت ان تكون عروسا لكل سائح .. سواء اقام ليلة .. فهو عروس ليلة .. او اقام شهرا .. فهي عروس شهر . . والحكومة الايطالية تعلم انها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل سائح اوروبي او امريكي او افريقي او اسيوي .. ولذلك فهذه العروس قد اتخذت اسلوب شهرزاد فهي تحكي كل ليلة قصة . ملايين القصص لمليون شهريار ..

واعلنت شهرزاد الايطالية ان تؤكد لشهريار الاجنبي انه الوحيد الذي في قلبها وعلى ذراعها وعلى صدرها .. وانه فتى احلامها وكنز مستقبلها .. وانه ايضا فريسة شبابها وضحية غرامها .. وانه تفاحة وانه بذرة في تفاحة وانه قشرة تفاحة .. وانه في صناديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما امتلأت صناديق الزبالة . وامتلأت الصناديق بالتفاح . ووقفت السفن والطائرات تلقي ما في بطونها من السياح .. امتلأت الشوارع .. واصبحت كأنها مسارح مزدحمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهرزاد .. من اخوات وبنات خالات صوفيا لورين وكلوديا كاردينالي .

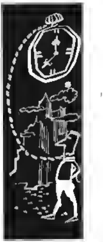

اما معادلة صعبة

ان يعيشوا على مصائب

الاسبانيه .. دون ان تصيبهم !

أكثر من سوليس!

.. سهر الليل .. ليلاس ..
www.lilas.com/vb3

يعني إيه خوف؟!

أول مرة ألمس فيها الارض السويسريه والجبال السويسريه واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلي في القاهرة ورأيته .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشي على الارض ويدب .. ويحاول ان يؤكد لاحد من الناس ان الاسفلت يمكن ان تغوص فيه الاقدام .. وعلى الرغم من ان قدمه لم تترك أى اثر على اسفلت الشارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم ييأس .. انه يحاول .. انه يمشي بسرعة ويدب . ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثواني وسط اناس يشبهون عقارب الدقائق وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه يتقد محتفظا في رأسه .. هذا المحتفظ جمله سليم الجسم .. متين البنيان .. في الثمانين ويبدو كأنه في الاربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وفي البن البرازيلي عندما رأيته فرحت .. وبلا تفكير مددت يدى اصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل أنه الدكتور راث الذى كان يدرس لي اللغة الالمانية في الجامعة

وظلت يدى ممدودة . وهو يسألنى : من انت ؟

وظلت يدى ممدودة . فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضح من ابتسامتى التى تقلصت .. انها كانت ابتسامة تلميذ لاستاذه .. فتحولت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحولت الى غضب مهذب من جواحة قليل الذوق .. ثم بسرعة تحولت الى اعتراف بالفارق بيني وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بيني وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشحطت كلماتى لتقول له : انا تلميذك فلان ..

ولم احفل بعد ذلك بيده الصغيرة التى امتدت لتصافحني

والتصغر لى . ولم اهتم كثيرا بانه يقرأ لى مقالاتى .. وانه اعجب بقضايا اثرتها .. وانه تمنى لو يلقانى ليناقشنى ..

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصد الرصاص .. فتحولت الى مجرد طرقعة .. صوت وصدى .. ثم جاءت تحيته وهزته لرأسه كمساحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج ..

وفى البن الاسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..

انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعه من ارض وشوارع ووديان وجبال وغرابه وصلابه وصحة وميكانيكية البلد التى اسمها سويسرا !

⊙✣⊙

ولم تتغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها .. ففى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف . اعجبتنى صاحبة البيت . فهى وحدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحديقه وتلمها . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسوية الغرف . وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعه عتيقه مطيعة . ولا علاقة لها بشيء آخر فى هذا العالم .. انها ست بيت .. أو صاحبة بيت .. وهذا يكفيها ..

فهى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : ألم تعرفى الحب ؟

قالت : وانا صغيرة .. وانسى كل شيء !

ــ ما هذا الذى انتهى ؟

ــ الحب !

ــ وكيف بدأ ..

ــ انت تعرف .

ــ ولكن الذى لا اعرفه هو كيف انتهى ؟

ــ هو مات .. وانا ما ازال حية !

ــ احتضرت الموقف جدا ! ؟

ــ انا لم احتضره .

ــ ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب الذى احب مرة .. يمكنه ان يحب مرة أخرى وشكل آخر .. فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلىء مرة واحدة .. انه يدق دائما .. ويظل يمتلىء بابدنبنا .. ويملىء نفسه ..

ــ انا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلىء .

ــ ولكنك ما تزالين جميلة ..

ــ اذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

ــ وتذكارية لماذا ؟

ــ فليس عندي وقت للحب !

ــ ليس عندك وقت .. من الذى عنده وقت ؟

ــ انت .. انتم ..

والحقيقة ان المشكلة ليست الوقت .. ولكن هي طبيعة السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء .. وانما هم أناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة .. لان القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة. وهم يفضلون النظافة على اى شىء آخر !

وليس من الصدف ان تتفوق سويسرا فى صناعة الساعات .. انها صناعة الدقة . صناعة الزمن . صناعة الارقام والتروس والعقارب .. صناعة قطع الغيار الدقيقة .. صناعة الرقيب الحسيس الذى يعد عليك انفاسك .. ودقائك .. وتربطه فى يدك .. أو يربطك هو من يدك ..

ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المألوف جدا ان تجد فى البيت السويسرى جدولا على الحائط .. هذا اذا انطبعت افكاره على الحائط فى ساعة بقم أو قرب ـ وهذا الجدول نصه . الاثنين : اجتماع الجمعية الدينية .. الثلاثاء : اصلاح الزجاجات .. الاربعاء : كونشيرتة .. الخميس : جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الحرب .. السبت : السينما مع عشاء .. الاحد : الذهاب الى الجبال ..

ولو حدث أنك زرت احد أصدقائك ـ ان كان من الامكان أن يكون لك أصدقاء سويسريون لأى سبب ـ فى يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و ١٤ دقيقة . وذهبت الى نفس الموعد بعد عشر سنوات فستجد صديقك فى نفس المكان .. من البيت .. على الكرسى المجاور للنافذة ممددا بينما زوجته تروح وتجىء فى البيت .. وكل السويسريين ممددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور او اى وزن فى بيته .. فهو عندما يدخل من الباب الخارجى يصل الى دولة أخرى ذات سيادة عليه .. الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة .. وارتدى كل منهما ملامح الجد والوقار .. مع أنه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة .. لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان فى نظام ميكانيكى دقيق . وهى ايضا لم تكف عن الحركة من البيت الى الدكان .. ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت .. وفى كل غرف البيت .. تضع طبقا هنا .. وزهرة فى النافذة هناك .. وبعدها تضغط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتمسح وتنفض .. والذى يرى الزوجة السويسرية وهى تنفض التراب يخيل اليه ان السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق وانهم سوف يأكلون على الارض .. فالارض كالصينى النظيف .. وكل شىء فى البيت يدل على اهتمام غير عادى .. مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم .

اذن هذه الزوجة فى نشاطها ساعة محددة ودقيقة .. والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد .. انه موعد العشاء .. الذى طبعا وجاء موعد العشاء ودخل الزوج وفى نفس اللحظة التى يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ .. كل شىء يتم بهدوء .. هو يدخل وهى تخرج .. هو يقعد وهى تقدم الطعام .. هو يقترب من المائدة وهى ايضا .. هو يأكل وهى تأكل .. هو يمضغ وهى تمضغ .. كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على نوتة موسيقية .. أو لعل الرجل ـ خصوصا الرجل ـ عندما ينظر الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذى يضبط حركة الطعام من الطبق الى الفم .. ومن الفم الى المعدة .. أما الزوجة فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعى طبعا لان تنظر الى رجلين فى وقت واحد .. فرجل مكشر أثناء الاكل يكفى جدا !

أما لماذا هو مكتئب .. وهي أيضا ؟

هذا السؤال معناه لماذا هو سويسرى .. وهي أيضا .

فالسويسرى ليس باسم الوجه . انه متجهم . حاد . ناشف . صحم . ولكنه منظم في جميع الحالات . أنا لم ار سويسريا يبكى . لانى لم أجد هذه الفرصة السعيدة . ولانه من الصعب على السويسريين أن يبعدوا . ولان يديه مشغولتان فان نزلت دموعه اضطر أن ينزع احدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل .. وكل هذا يؤدى الى ارتباك عام .. ولان الدموع اذا نزلت من عينيه يجب أن تنزل بترتيب . ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا في ترتيب دموعهم . ولذلك عدلوا عن البكاء .. لانه أما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، او .. لا بكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون في حاله ..

فالدنيا كلها تنحرف وتنهار في حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهار .. واذا حاول انسان أن يهرب ، فالى سويسرا .. اذا حاول أن يتخفى فالى سويسرا .. اذا حاول ان يودع أمواله بعيدا عن الايدى والعيون فهى سويسرا ..

وسويسرا هي البلد الوحيد في الدنيا الذى لا يعرف الخوف ..

تصور شعبا لا يعرف الخوف . أناس لايخافون من اليوم ولا من الغد .. لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة .. ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ..

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب .. لا تعرف الخط التليفونى الذى ينقطع لان احدا يستمع الى التفاهات التى نقولها لاى انسان ..

اناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم .. لا يعرفون الاحالة على المعاش الا في الثمانين .. لا يختطف اليهم الموت الا في التسعين .. يظل الموت يطاردهم في الجليد وفي الوديان .. ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم الا بعد ان يكون أى مصرى ولد معهم في نفس اليوم قد مات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية .

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية .. فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هي .. ففي سويسرا اربع لغات : الالمانية والفرنسية والايطالية والرومانش ـ وهي اللغة السويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس ـ ولكن الدستور صريح في أن تحتفظ كل اجناس بلونه ودمه ولغته .. وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس .

هذا قرار اتخذه الشعب السويسرى سنة ١٩٢٨ ان نبقى على وفاق مع خلافاتنا .

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا . فهى ليست عضوا في الامم المتحدة . وكأنها بذلك ليست عضوا في اسرة . ليس لها دور . ليس لها وزن . ولا موقف . ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن .. وهذا رأى !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ..

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رأيه .. ويتمسك به .. أما الاتفاق على رأى واحد في هذه الخلافات فليس ضروريا .. والضرورى أن يختلفوا .. والذى ليس ضروريا ان يتفقوا على معنى الحياد .

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس . ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات .

ولذلك من المستحيل ان يكون كونفوشيوس امبراطورا لسويسرا .

بل انه من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق .. لان السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى .. وحرية اختيار الحاكم .. ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير .. واذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلا حاشية ولا امراء ولا خلفاء .. بل ان زوجة الحاكم نفسه .. أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهى مجرد مدام ... ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت في الانتخابات .. فالمرأة لا تعطى صوتها .. والمرأة تتقاضى أجرا اقل من أجر الرجل اذا اتفقا في كل شيء . المؤهل .. والوظيفة .. وساعات العمل .

والسبب هو : أيهما ينتج أكثر ..
في سويسرا يقولون : الرحل ..

ونحن لم نتفق على رأي في هذه القضية .. لأننا لسنا سويسريين .. ولا يمكن أن نكون !

ولكن لا شيء يتم في البيت أو في المصنع أو في الشوارع دون سؤال الناس عن رأيهم ..

مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت في سويسرا .. ولسبب ما .. قررت أن تهدم هذا البيت .. وبفلوسك تقيم بيتا آخر .. لا تنس أنك سويسري وطني مخلص .. وفلوسك موجوده في البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال .. وبهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر ..

وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت .. وستلجأ الى المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر ..

ومع حبي لبيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك .. وأن تبني بيتك .. فهناك شروط كثيرة ..

أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسري في هذه المدينة أن بيتك يجب أن يهدم . وأنك لست صاحب نزوة .

واذا فرضنا أنك صاحب ثروة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد أموالك . فما دخل الناس ؟

الناس في سويسرا لهم دخل . فليس من حقك أن ترغمهم من غير مناسبة .. تهدم وتبني .. وليس من حقك أيضا أن تطرد السكان بدون لأنك صاحب نزوة مالية ..

واذا فرضنا أن بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه . لا بد أن يتأكد للشعب السويسري أن البيت يجب أن يهدم لأنه قديم أو منهار . ولأن الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن يهدم . فاذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة .. وعملية حس التربة تتم بآلات حديثة . ويتولاها مهندس أو عامل ماهر ..
ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور أو دورين أو ثلاثة أو أربعة .. وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا يعترض لأن اقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات .. أو أن هذا البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس .. أو يمنع الهواء

ولا بد أن نحترم هذه الاعتراضات احتراما تاما .. ولم يحدث كثيرا أن أدت هذه الاعتراضات الى تعطيل بناء عمارة من العمارات .. لا لأن هذه الاعتراضات لا قيمة لها .. ولكن لأنه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر في مكانه دون أن تكون هناك أسباب وجيهة جدا لهذه العملية المعمارية ..

وقد سمعت من سفيرنا في سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح أن السفارة اقامت جناحا ملحقا بالسفارة . وبعد أن تم بناء الجناح توجهت السفارة الى أحد جيران السويسريين يشكو السفارة الى القضاء لا لأن السفارة اقامت جناحا . فهذا من حقها مادام الجناح قد استوفى كل الشروط الفنية .. ولكن لأن لون هذا الجناح يؤذي العين .. يؤذي عينيه .

وقد رأيت هذا الجناح . وفحصت عيني فيه وفي ألوانه ولم أشعر بأي أذى ..

ولكني انتهي صاحبي هذا الجار السويسري هو أن الجناح قد طلي باللون الأبيض الرمادي .. وهو لون غريب عن ألوان كل البيوت المجاورة .. فهذا اللون صارخ .. تماما كالصوت الصارخ الذي يزعج الأذن . فهذا اللون يؤذي العين .. فهو جزء من الضوضاء المرئية ..

والناس يرفضون الهدوء الصوتي في بيوتهم . فهم أيضا يريدون الهدوء اللوني والصوتي لعيونهم ..

وأنا أحيي هذا السويسري عشرين مرة .. مرة واحدة لأن له رأيا .. ومرات لأنه مصر على هذا الرأي ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات .

⊛⊛⊛

هذه النقطة الجاهلة!

من المشاهد العربية في سويسرا ان تجد احدا كريما صحيحا شهما.. وتحس لأول وهلة انه ليس من اصل سويسرى . وانه لابد أن يكون أجنبيا .. مع انه لا يوجد شيء اسمه « الاصل السويسرى » .. فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هي وطنهم الام .. ويتكلمون الالمانية . والمانيا ليست وطنهم .. والايطالية ، وايطاليا ليست وطنهم الاول .. انهم خليط .. أو هم سلطة : طماطم وخس وخيار .. في اناء من الكريستال النظيف الانيق .. ولكن عناصر السلطة تعيش معا . ويتكون منها هذا الطعام الشهي ، ولكنها لا تختلط تماما .. وانما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح ..

ولذلك اندهشت عندما دعاني مسيو احمد هوبر الصحفي السويسرى الذى أسلم وتزوج من سيدة مصريه سمراء رقيقة .. انه شاب في غاية الحيوية والحماس والدقة .. في غاية السويسرية .. وهو واسع الافق .. وعلى المام دقيق بقضايا العالم السياسية . وبقضايا الشرق .. وعلى فهم كاف بتاريخ الاسلام والمسلمين .. وهو رجل كريم خدوم .. أو أصبح كريما .. وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت .. هو الذى يدعوك الى الطعام .. و « يعزم » عليك .. ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا ..

ومن المؤكد انه لا يريد منا أن تنهض بعد الاكل مباشرة .. هذا مؤكد . ولكن نظراته طاردة .. انها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذى يفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه .. وعندما تسقط على السلالم النظيفه . وتتماسك وتخرج من الباب النظيف الى الشارع النظيف .. وتتطلع الى شقته تجده أنه قد أطفأ النور .. ودخل في الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة !

لم يحدث شيء من ذلك . هذا أكيد .. ولكن ترجمتى الدقيقة لنظراته السويسرية تقول ذلك ..

واذا تحدث اليك في موضوع أدبي أو فلسفي أو تاريخي .. بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالالمانيه فهو رجل شاعرى .. وهو مفكر واضح .. وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى انه سويسرى .. ولكن عينه التى لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من الضرورى أن تنهض .. لانك سائح ولانه موظف .. ولانك مصرى ولانه سويسرى .. ولانه سويسرى غير عادى ، ولانه من الضرورى أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر عنده حتى الصباح - مثلا !

وهذا الرجل احمد هوبر مختلف عن السويسريين في شيء جوهرى جدا . انه يقنعك .. ولا يحاول أن يعلمك !

فمعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع .. انهم مثل الفرنسيين يقول كل واحد منهم كلمته .. ثم يمضى .. أو مثل رجال الدين كل واحد يشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء لتنتهز انت فرصه اتصاله بالسماء وتمضى لحالك .. على الارض !

وهذا سر المتعه التى لا تنتهى في الحديث الى المواطن السويسرى احمد هوبر !

⊛✿⊛

وعندما ذهبت الى احد الساعاتية في سويسرا .. وما أكثرهم .. انهم يشبهون مطاعم الفول في القاهرة .. ومحلات الحلويات في دمشق .. وقدمت له ساعتي اريد لها زجاجة جديدة .. وأخذ الرجل الساعة ووضعها في درج . وأعطانى وصلا . وقال - ليست عندى هذه الماركة !

قلت : لم افهم ..

قال : انى لا اصلح كل انواع الساعات . ولذلك يجب أن تذهب الى المحل الخاص بهذه الماركة ..

ومد يده الى التليفون وسأل احد المحلات .. أو هكذا فهمت لانه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الالمانية واللغة الرومانشية ..

واعطانى عنوان محل آخر ..

وذهبت .. والمحل الآخر اعطانى ورقة على ان اعود في اليوم التالى .. لان زجاج هذه الساعة يجب أن يستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن .. ثم ان ماركات الساعات السويسريه لا عدد لها .. ثم ان من حق أي انسان ان يصنع ساعة وان يضع عليها الماركه التي تعجبه .. اما الماركات المشهورة فهي لا تصنع كل هذه الساعات التي تحمل ماركتها .. وانما الشركة الكبرى تعطي لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئويه نتفق عليها ..

وفي اليوم الثاني عدنا ..

ووجدت الزجاجه ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجه وتركيب زجاجه اخرى ..

ورأيت كيف .. وهنا أدركت ان الساعاتيه عندنا هم اناس يصلحون وابور الجاز .. او الثلاجات .. فلا توجد عند الساعاتيه في سويسرا . لا سكاكين ولا كماشات .. ولا احد يستخدم اسنانه في فتح الساعه .. لا لان صناعة اطقم الاسنان لم تتطور الى هذه الدرجه ؛ ولكن لان هناك الآن دقيقه رفيعة .. تلمس الزجاج فتخرج كما تخرج الشعرة من العجين .. بنعومة وبلا ضوضاء ..

ثم ان كل انسان قد تخصص في شيء ..

ثم ان كل شيء يتم في هدوء الساعه وبرودة عقاربها ..

واهم من ذلك ان للسويسريين طريقتهم الخاصة في الاهتمام بك والترحيب بخدمتك .. فهم لا يصافحونك بحرارة .. ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه او في الايدي التي تضغط .. وانت كسائح لا تطمع في اكثر من الخدمات المجانية .. واعتقد انها سماحة منك ان تطلب من الناس ان يخدموك مجانا . وأن يكونوا سعداء ايضا لذلك ..

⊙❖⊙

واذا كانت سويسرة بلدا لا تعرف الخوف .. فهي ايضا بلد لا يعرف التوسع ..

فالارض محدودة من مئات السنين ..

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون .. ولذلك فهم يحاولون تجويد التربه راسيا .. بعد ان ضاقت بهم افقيا .

وهم لا يريدون اي توسع سياسي ايضا ..

والتوسع الوحيد الذي يحرص عليه السويسريون هو التوسع في الخدمات وفي استثمار أموالهم في الخارج .. ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة .. التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات ..

وسويسرا قد تطورت في صناعات كثيرة ، كما انها اول دوله في العالم استخدمت الكهرباء في ادارة كل اجهزتها تماما ، وكان ذلك في سنة ١٩٤٢ ..

وهناك بوارج اخرى مشهورة في سويسرا ..

ففي عام ١٨٠١ قامت أول مصنع للنسيج ..

وفي عام ١٨٢٦ اصدرت اولى عملاتها المعدنية ..

وفي عام ١٨٥٠ انتجت اول ساعه لا تملأ بالمفتاح ..

وفي عام ١٨٦٧ كانت أول من انتج اللبن المجفف ويحمل اسم نستلة ..

وفي عام ١٨٧٧ انتجت الساعة ذات الزنبرك ..

وفي عام ١٨٩٧ انتجت الحرير الصناعي ..

وفي عام ١٩٢٣ كانت شركة ساندوس الطبية اول من توسع في استخدام الاعشاب الطبيه ..

وفي ١٩٢٥ عرف العالم أول انتاج الفيتامينات تحمل اسم شركة لاروش العالميه ..

واذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم ايضا جنون الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحيه بوعي . على عكس الامريكان الذين يعرفون ان هناك مرضا . اي مرض . ويواجهون احتمال المرض بمساطيل الفيتامينات والعقاقير الوقائيه . ولا يفكر الامريكي في المرض الذي يعنيه .. وانما هو يتقي كل الامراض الممكنه .. ففي المالوف أن تجد الامريكي يبتلع حبوبا واقراصا في الصباح وفي المساء .. ويترك لهذه الاقراص ان تتولى حراسته ضد الميكروبات .. انه ميكروبات .. اما السويسري فهو يعرف الامراض المنتشره ويتعبها تحسبا لا لانه يخاف فقط .. ولكن لانه دقيق جدا ..

ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة في البيت .. الكلاب والقطط والابقار وغيرها .. خصوصا أن هناك بعض الامراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهذه الامراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة ايضا . ومرض قطة او كلب مثل مرض اى طفل يلقى بعض الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأى كائن حي .. ووفاة قطة كوفاة انسان. أما اذا حدث أن داست احدى السيارات قطة . فهذه كارثة للشارع كله .. واحيانا للمدينة من اولها لآخرها .. ويتوقع الناس أن يروا صورة للحادث في التليفزيون وقد امسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث .. أو على التليفزيون او على طلب للبرلمان للتحقيق في هذا الامر الخطير ! .

اعرف صديقا مصريا جاء الى سويسرا من المانيا وتعلق اطفاله باحدى القطط . فاشترى القطة ، وبعد اسبوع واحد من اقامته في سويسرا استدعاه البوليس لامر هام . التليفون يقول : لامر هام .. والاشارة من البوليس تقول : لامر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة الصديق يؤكد : انه هام وكارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصري .. ووضع بأن كل الاحتمالات التي دارت في رأسه لا علاقة لها باسباب الاستدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه ان يجلس لكي يشرح له : ما الذي عملته القطة في الحديقة ؟

— ما الذي عملته ..

— انها حفرت في الحديقة .. ثم تركت بعض مخلفاتها .. وانت تعرف ..

— اعرف . .ماذا في هذا ..

— في هذا كل شيء .. ان القطة مريضة ياسيدي .. عندها اسهال . تصور ! ..

— استطيع ان اتصور . فما الذي افعله أنا .. انا شخصيا عندي اسهال ..

— افهم ذلك .. ولكنك لا تستطيع ان تفعل ما فعلته القطة ..

— طبعا .. لا افعل ..

— لماذا ؟ لان هناك مكانا مخصصا لذلك في شقتك .. فأين اذن المكان المخصص للقطة ..

— هناك مكان .. ولكن القطة لم تعمل ..

— ولماذا لم تعمل .. لانها قطة غير متعلمة ..

— غير متعلمة ؟

— طبعا .. القطط يجب ان تتعلم اين تأكل واين تشرب .. واين تتخلص من كل شيء بعد ذلك ..

— ان هذه القطة قد اشتريتها ..

— كان يجب ان تسأل عن عادات هذه القطة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف .. الخ ..

باختصار . هذه القطة عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة .. ولسوء الحظ رآها البواب .. وذهب البواب واخبر البوليس .. لان القطة مريضة . ومرض القطة مسألة صحية ، ولابد ان تعلم السلطات الصحية بذلك .. حتى لا تنقل العدوى الى بقية الحيوانات والاطفال ، والبواب يؤدي بذلك واجبا وطنيا . ويراه كل الناس موقفا طبيعيا .. وهو لم يضيع وقته في الكلام مع صاحب القطة .. فصاحب القطة ليس البوليس وليس الادارة الصحية .. ثم ان صاحب القطة متهم ...

وانصرف الصديق المصرى ..

وفي البيت جاء الطبيب ، وأخذ عينات من مخلفات القطة . وطلب التحفظ على القطة . واخذ القطة في صندوق . وبعد التحاليل ثبت ان القطة عندها اسهال حاد .. لانها قطة تعودت على الطعام المسلوق .. فلما اكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن .. ذاب احشاؤها في الحديقة ..

ولا بد من علاج للقطة ..

ولا بد قبل العلاج أن تتعلم القطة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب أن تذهب القطة الى مدرسة ، وعلى حساب صاحبها .. وذهبت القطة الى المدرسة . وعرفت المدرسة ان القطة في حاجة الى شهر ..

وهنا قال صاحب القطة : انا لا اريدها ..

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك .. وتظل ايضا الى ان نجد لها احدا يؤويها في بيته ،

وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض انى اخذت القطة واطلقتها في الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : في هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف .. وربما ادى ذلك ..

ولم تقل الى طرده من سويسرا — وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالانسانية ! ..

ولم تعد القطة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها .. فليس من السهل أن تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق في بيت يأكل فيه الاطفال الارز المفلفل وطواجن اللحم بالسمن .. ومن الصعب تربية قطة في بيت به اطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى في سويسرا الذى قد يؤدي الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ..

❀❖❀

وسويسرا بلد من الناحية الفنية محدودة . فلا احد يعرف اسم فنان كبير في اى نوع من فروع الفن ..

وربما كان المهندس العالمي لوكوربوزييه هو اشهر سويسري في دنيا المعمار — وهو يأسف لذلك اشد الاسف . لا على انه مشهور ، ولكن على انه سويسرى .. هكذا جاء في مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الاسف ..

وربما كان المثال بول كلي من اعظم صانعي التماثيل في العالم ، وهو سويسرى ..

وقد حدث اثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » في سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز ان خطرت فكرة عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . اما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الايطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت في التاريخ .. ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام في سويسرا قد اسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت ..!

ولكنها في عالم الادب أحسن حالا ..

فقد ظهر في سويسرا اديبان عظيمان بعد الحرب

وهذان الاديبان من الالمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الالمانية . وهما لذلك يحركان الادب الالماني والاوربي وهما فنانان في الجبال العالية ..

وقد قابلت هذين الاديبين .

وترجمت لكل منهما .. ايضا .

الاديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات " رومولوس المعظم . وقد ظهرت على المسرح وقام بطولتها صلاح منصور ونورا نبيل واخرجها سمير العصفورى .. وترجمت له مسرحية « هبط الملاك في بابل » .. ثم مسرحية « الشهاب » التى ظهرت على مسرح الجيب — اى في المكان الذى لا يناسبها . وبالاخراج الذى لا يتسق مع طبيعتها !!

وقد قابلت ديرنمات في بيته . والتقيت بزوجته

وتحدثت اليه طويلا في الادب العالمي وفي ادبه .. وهو رجل ريفي .. يبدو سمينا قصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس اليه تجد السخرية في عينيه وفي عبارته .. واذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه . وهو رسام وموسيقي وشاعر ومهندس معمارى .. وابن قسيس .. وهو من احسن ادباء اللغة الالمانية ..

اما ماكس فريش .. فهو اهدأ واعمق .. وسخريته ملفوفة. وقد ترجمت له مسرحية « امير الاراضي البور » ..

ومن الغريب انى عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لي عشرات من فناجين القهوة .. ولم انتبه الى هذا الاسراف . وظننت انه هو الذى يحب القهوة كثيرا . ولما سألته عن السبب قال لي : الستم تحبون القهوة هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟

ولما سألته عن الكتب العربية التى قرأها .. اعترف لي عن ايمان — كما اعترف لي قبل ذلك في القاهرة البرتو مورافيا وسومرست موم — انه لم يقرأ غير الف ليلة وكتابا للامير ارسلان .. وان معلوماته عن العالم العربى مع الاسف قليلة ..!

اما ماكس فريش فقد زرته مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان الرجل في انتظارنا . في غاية الصحة والحيوية . وهو يؤكد

لك انه في صحة جيدة ولا يشكو من اي مرض .. وقد اختار البيت الذي يقيم فيه على ارتفاع مدروس.. لانه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا . واحسن ارتفاع لنشاط العقل الانساني . وكان قد اعد لنا زجاجة من الويسكي . . واعتذرنا . واعتذر هو ايضا لنفسه لانه لايشرب نهارا ..

وظهرت فتاة تروح وتجيء. ليست جميلة. فقال ماكس فريش انها خطيبتي ..

ودهشت .. ان كلمه « خطيبة » هي لقب قد اعطي لهذه الفتاة بمناسبة تشربها ..

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا اديبا واحدا له قيمة عالمية .. ولا مفكرا واحدا بعد جان جاك روسو له اي وزن دولي ..

ان سويسرا ارادت ان تكون منطوية على ساعاتها وعلى اجبانها وعلى مقتنياتها.. وعلى حلاقاتها الثابتة.. وان تغلق عينيها عن العالم .. وان كان العالم لايغلق عينه عنها .. صيفا وشتاء . وان تنطوي على هدوئها وطمأنينتها .. والا تمد يدها لتصافح الا من تعرفه .. وحتى لاتمد يديها فانها حريصة على الا تعرف أحدا .. ويكفي ان يعرفها الناس .. وهي تريد أن يعرفها الناس عاصمة المطافئ : نظافة الارض والبيت واليد وهي البيئة التي لاينشأ فيها فن ولا أدب . فالادب كالنبات ينمو في الطين ..

ويبدو ان بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفي لان ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات .. وفريش ؟

من القاعدة القوية الباردة

الى التطبيق الحار ..

من موسكو ..

الى هافانا !

من الكافيار الى الأناناس وبالعكس

.. سهر الليل .. ليلاس ..
www.lilas.com/vb3

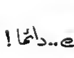

كش الملك.. دائما!

كان الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس معتما تماما .. ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس أشباح .. أجسام سوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد .. وطبعا دون أن يتساعد أحد على أحد .. أو يسقط أحد على الارض كما حدث لى مرتين وانا اتجه من لوكاندة أوكرانيا الى الميدان الاحمر الشهير .. ومن المؤكد اننى فى هذه الساعة من الليل .. فى هذه العتمة والظلام والسرعة ، لن ارى الميدان احمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها فكرة خطرت لى فسأل أن أتأكد من عزمتى ان أذهب الى الميدان الاحمر .. لأشاهد الكرملين الذى رأيت صوره وقرأت عنه .. ولم أره ليلا وان أراه نهارا .. فهمت أحداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الانسان فى القرن العشرين ..

الصدق دافىء .. والناس كثيرون ومن هيئات مختلفة أو من كل الهيئات .. والمترهات على الصدق سيدات كبيرات فى السن .. وشيء من الصمت يربط الناس بعضهم البعض .. وربما كان سبب الصمت أن أحدا لا يعرف لغة أحد .. او لا داعى للكلام .. كان الناس قالوا كل ما عندهم وجاءوا هنا ليتملوا انفسهم أو ليغسلوها او ليقطعوها او يستبدلوها .. صمت .. حاولت أنا شخصيا أن أقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذى اريده ؟ لا شىء .. ما الذى أحتاجه ؟ لا شىء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. اذن فالصمت سلوك طبيعى ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شىء كبير وغليظ وعريض وطويل ..

واتجهت الى اليسار .. الى يسار الصدق .. وليس كل شىء

هنا يتجه الى اليسار فقط .. طبعا لا .. فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضا يمين ويسار .. ولكن اليسار فى الفكر ..

والناس يروحون بحفة .. غريبة .. وأتوان غريب .. وقد ارتدوا شيئا من الفراء على الرأس .. وأحذية غليظة وتغطوا بالبالطو .. احتاطوا تماما للشتاء .. ولكنه ليس شتاء عندهم .. انه يوم من ايام السنة الدائمة الشتاء .. والارض من الطين .. ولا بد أن ضحكات التى تتعالى ورائى وامامى بسبب أناس سقطوا على الارض .. حتى .. انهم لم يعتادوا على المشى فى شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الاحذية التى يلبسونها جديدة .. انها مثل الجوارب .. رقيقة .. ولا تمنع تسرب الماء .. أما البرودة فقد تسللت واستقرت فى العظام .. وأفقدتنى الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكينا وقطع أنفى فلن أشعر .. ولو قطع اذنى فلن أشعر .. ولكن من المؤكد انه لو قطع لسانى سوف أصرخ .. لأن لسانى فى فمى .. وفمى دافىء .. أى أن أعصابى منتبهة ..

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الالعاب البهلوانية التى يقوم بها فى الشوارع .. أو انهم اعتادوا عليها .. أو انهم يتجاهلون يضحكون فى سرهم .. أو انهم بدأوا يضيقون بها ويعلقون عليها الشغلنة المدروسة ..

ووصلت الى الميدان الاحمر .. من المؤكد انه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذى يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء .. والقريبة من الميدان .. ومنتصبا فى الميدان .. واشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل «الدوم» أكبر المحلات الاستهلاكية فى موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن .. وأن هنا قبر لينين .. وانه لابد ان نجيء فى ساعة مبكرة من الصباح لنقف فى الطابور ساعة او ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذى ولد من ٩٦ عاما .. والذى عندما بلغه أن أخاه قد أعدم لانه تآمر على القيصر أقسم ان ينتقم .. وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الالوف من القياصرة والحاشية فى روسيا وفى كل العالم ..

بعد ذلك كان لابد أن أعود الى الفندق .. لانه لا شىء يمكن عمله عند منتصف الليل فى موسكو .. لا شىء .. لا المشى فى

الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار الاوبرا .. فهذه اماكن مكدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما .. ولا بد من تدبير وترتيب .. ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر .. ما دام الانسان غير قادر على الرؤية .. فلا معنى لشيء .. اذن لابد من العودة الى الفندق .. ولا بد من النوم ..

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق اوربى .. فيه تدفئة واضحة .. وفى الغرفة راديو ينطلق منه الموسيقى .. وربما نشرات الاخبار .. لا نعرف .. فكل شيء بالروسى .. ومن نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح .. هناك أضواء .. وهناك كناسون ــ أو على الاصح كناسات ــ وهناك جهود عنيفة لتكديس الثلج او الطين على جانب من الشارع .. وتجيء عربات تحمل الطين أو الثلج وتنقله الى مكان لا نعرفه .. وهذه العملية لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا .. والروس يفضلون الجليد على الوحل .. فالجليد أنظف .. ومعهم حق ..

وفى الصباح بدا كل شيء واضحا ..

الشوارع واسعة جدا .. والطين الجاف أو الجليد المتسخ على جانبي الشارع .. والملابس القاتمة القصيرة الضخمة تطل منها وجوه شقراء متوردة .. والعربات تروح وتجيء .. والسيارات والناس .. أو الناس كالسيارات .. أو السيارات كالناس .. كل شيء يتحرك لهدف .. متجه .. منطلق .. فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الاوربية الاخرى ..

والافطار يجب أن نتناوله فى المطعم ..

ويجب ان نخلع البالطو وان نقدم لحارس البالطو سيجارا أو سيجارة يشكرك عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفى المطعم يجب ان تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء والعشاء .. وأجمل ما يمكنك ان تتناوله فى الصباح هو كوب اللبن .. انه ليس دسم .. أما القهوة او الشاى أو البيض والزبدة فهى كلها اطعمة عادية .. والخبز هنا ابيض واسود .. الاسود الذ

وأمام الفندق تجمعنا .. وفى اتوبيس ركبنا .. والى مترجمة تتحدث العربية ــ أو نوعا منها ــ أعطينا آذاننا لنسمع منها القليل جدا عن العاصمة موسكو .. فلسنا فى حاجة الى ان نعرف منها

الكثير . لاننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب السوفييتى .. وكل ما يهمنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة .. مثل تمثال من هذا .. انه تمثال الشاعر الافريقى الاصل بوشكين أو شارع جوركى .. وجوركى اسم قد اطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات ..

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائية .. فى هناك تماثيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة فضاء الى العالم الخارجى .. يوم ٤ اكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان اول قمر صناعى روسى اسمه « اسبوتنك » .. وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ الف ميل ويقطع مداره حول الارض فى ٩٦ دقيقة واقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا واقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا- وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ..

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت الذى كان يبعث به الى الارض من الفضاء الخارجى .. ورأيت له نموذجا فى المعرض الدولى ببروكسل .. وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر .. وللقمر الذى انطلق به جاجارين .. وسفن أخرى كثيرة ..

ومن الواضح ان هذه السفن ليست كبيرة .. انه سحر علمى عميق .. ولكن المشكلة والصعوبة هى ان هذه السفينة كلما زادحجمها وزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية الارض .. ثم اعادتها الى الارض سالمة .. والنظريات العلمية لارسال واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والامريكان .. ولكن الروس تقدموا على الامريكان فى صناعة الصواريخ وفى مادة الوقود .. ولذلك فالروس يطلقون احجاما أكبر وأوزانا اثقل ..

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك .. لان الانسان لا يفهم شيئا من هذا الذى أمامه .. فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض الاسلاك .. ومن المؤكد أن الروس ــ وهذا طبيعى ــ قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقدة التى بها . فهى سر .. ولا أعرف ان كانوا فى امريكا يعرضون سفن فضائهم فى أى معرض .. ولكنها أسرار .. وحرب معلومات .. ولا بد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلما .. وواضح أن التراجمة الذين يشرحون لنا هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها

شيئا · وهذا هو سر عدم الحماس في الشرح ·· فلا يمكن أن يقال انهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال في ساعة مبكرة ·· ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم شيئا من هذه العمليات العلمية الباهرة ···

وفي الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له ·· ولكن ضحكات بحساب وبوعي · فقد العصب المترجمة الروسية تقول غدا نلتقي في صحن الدار في الساعة التاسعة ·

قالتها باللغة العربية طبعا ·· ومعنى هذه الجملة غدا نلتقي في بهو الفندق في الساعة التاسعة · وحاولت ان افهمها ان « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها · وان الدار أفضل منها كلمة الفندق · ولكنها اصرت على الدار وعلى الصحن ·

وعرفت بعد ذلك ان لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شيء فمثلا التافهة ·· عندها هذه الكلمة فقط ·· فاذا قلت لها : النشاك لا تعرف معنى هذه الكلمة ··

وفي صحن الدار في اليوم التالي التقينا ·· وركبنا الاتوبيس السياحي ودار بنا في شوارع موسكو ·· وأهم ما رأينا هو محطة المترو ·· انها أجمل وأعظم محطة مترو في العالم كله ·· في غاية الفخامة ·· ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها ·· ومن النادر أن يصوروفيلم فيموسكو لاتظهرفيه هذهالمحطة.. جميلة وانيقةوضخمه وتكاليفها لا يمكن حصرها .. الرخام والتحف الكريستال .. وعربات المترو ·· والمصاعد والسلالم ·· تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ··

وفي الليل ذهبت الى السيرك ·

واكتشفت أنني وقعت في خطأ فظيع .. فقد ارتديت جاكته فوق بلوفر فوق بلوفر ·· وفوق القميص بالطو ·· وعلى الرغم من أن الناس حولي قد خلعوا البلاطي وتركوها في أماكنها الخاصة قبل الجلوس في أماكنهم · فانه من الضروري أن احتفظ بالبالطو لاني من غير كرافته · ولا بد من البدلة والكرافتة في المسرح والسينما والاوبرا وأي مكان يذهب اليه الانسان ·· ولذلك تسترت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس في القاهرة ··

فيذهبون الى حفلات السفارة السوفييتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون او ببدلة من غير كرافته.. ولكنهم يحدون الدبلوماسيين الاشتراكيين في غاية الاناقة ·· وبالكرافتة ·· لانه لا علاقة للبهدلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن ·· الذي هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط ·· للمجتمع العلمي ·· وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم ..

والروس قد برعوا في كل فنون الرقص الاستعراضي · وفي رقص الباليه ·· والباليه الروسي هو سيد الباليه في العالم .. وقد رأيت في القاهرة الراقصة العظيمة تمارا توماتوفا وأولانوفا .. وليبشينسكايا .. وغيرهن .

وعلى الرغم من الشكل المتجهم الذي يبدو عليه الروس في الشوارع ـ أنا لم أرهم الا في الشوارع ـ فانهم في الملاهي يضحكون من كل قلوبهم · ككل الناس ··

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد تخففت عن نفسها قليلا·· وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجليد .. ومعها ذلك الطابع القاسي الذي يتسم به الروس او الذي انتشر في أذهاننا عن الروس الى حد ما ··

وفي المطار استمعت الى الموسيقى الامريكية الحديثة : روك اند رول ·· تشا تشا · والتويست ·· أيضا · وقد أدهشنا ذلك ·· وادهشنا أكثر أن معظم البائعات في المطار يحرصن على البيع والتنافس .. وفهمنا ان كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول احد الاصدقاء ان يشتري شريط ·· وكان الشرط هو ان يلتقي بالفتاة يوما ما وفي مكان ما ·· وأمسكت به وقلت له هل تريد بدولار واحد أن تستغل هذا الحاقد الفردي الذي نادى به ليبرمان أسوأ استغلال ·· بدولار واحد · ومن أول فتاة ومن أول لحظة ··

وكانت نكتة الرحلة كلها ··

وفي الفندق نسينا ورأينا شباب موسكو يرقصون التويست .. وصفقنا طويلا للشبان ·· ولا أعرف بالضبط ما الذي صفقت له ·· هل لانهم يرقصون رقصا أمريكيا ·· ومعنى ذلك ان الفن للجميع · وانه لا يوجد رقص أمريكي ورقص روسي ·· هل أريد أن

اشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. اى رقص هل المفاجأة أدهشتني .. وانا اصفق لمن اداب الجليد بين الاعداء .. الامريكان والروس .. هل أصفق غيظتي لاني نسيت ان البى الكرافتة وطلب الوحيد الذى خلع البالطو وورد الماكتة ورمح يافتها الى اعلى حول العنق .. هل لانهم فعلا فى حاجة الى تشجيع لان الرقص الذى أداه ليس اسبانيا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع فتاة والقاؤها على الارض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة .

ربما كان ذلك .. أو كان اى شىء .. او كان الطعام القديد الذى تناولناه على مائدة فخمة ضخمة .. ارتفعت فيها الوف الاكواب من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك اول الاحساس الحقيقى بان هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى واضح .. وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن امامنا وقت طويل نضيعه او نقضيه فى ليل موسكو او فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقل الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث . ونحن نعقل زعودة المسافرة من القاهرة ..

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا .. وذات ثمانية محركات .. المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بان هذا اذا حدث ازدادت قوة الاندفاع .. لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم افكر فى كيفية تطبيقها ...

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة .. وعلى الجوانب من الامام غرف طاقم الطائرة .. وفى كل مكان لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا اعرف . هل لانها نوع من التكنيك الصامت المتجهم .. هل لانها لعبة تسمى عادة بمقتل الملك .. يحبون وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. او برد عاصف اتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المألوف اننا لانعرف عنها اى شىء .. انها تدخل وتخرج وتنتقل الى العمق دون ان نعرف عنها شيئا . وليس من الضرورى ان نعرف .. لانه لاخوف على ذلك .. فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة . وليس من شأنك ان تعرف ماذا

جرى لها .. فسيادة البلاد من شأن اناس آخرين مدربين وعارفين وفى غاية اليقظة .. « بس اركب انت .. اركب ! » ..

سمعتها من ورائى .. وركبت . وجلست الى جوار النافذة .

ولم اعرف من احد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى .. الى لا اعرف الى اين ؟

اركب ! ركبت .. اقعد قعدت .. اسكت ! سكت .. «نام» ..

لا استطيع .. كل .. اشرب ! .. لا مانع ! العب شطرنج ! ممكن !

وبعد ساعة او ساعتين . . اضيئت انوار الطائرة .. وجاءت صوانى الاكل .. لحم وكافيار .. وخبز وسلطة وزبدة .. ولست متأكدا فى هذه اللحظة ان كان الذى قدم لنا الاكل رجالا او نساء .. فالطائرة ضخمة ولا تهتز .. ولا أحد يرى اى شىء من النافذة .. ولا يسمع اى شىء .. ولا احد يقول لك اى كلام . والحقيقة انه لاضرورة لاى كلام . فما الذى يمكن ان يقال لك .. نحن متجهون الى القطب الشمالى . وليلا . فلا شىء يمكن ان يقال . .

واحسسنا بان الطائرة تهبط .. هكذا دون أن يلفت نظرك احد ..

ويبدو ان صناعة الطائرات متقدمة فى روسيا جدا .. فهى وسيلتها الوحيدة الى الانتقال فى اراضيها الشاسعة ..

ومن النافذة تنظر الى لاشىء .. لاشىء يمكن رؤيته .. انه سواد .. او بياض .. او الاثنان معا .. مادية شاسعة واسعة لا اول لها ولا آخر .. وهبطت الطائرة . ومن النافذة لاترى اى شىء .. وان كانت الارض بيضاء ثلجية .. وهناك مصابيح تعكس صورة ليست صغيرة .. او مطار صغير .. او اى شىء صغير ..

وانفتح باب الطائرة . ونزلنا . وكانت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر .. وهذا الرقم لايمكن ان يكون له اى معنى او دلالة عندك الا اذا ذهبت الى هذه المناطق من العالم .. وخرجت براسى وفقدت الاحساس فورا براسى .. ان شيئا ابيض قاطعا قد فصلها عنى فى نفس اللحظة التى اخرجتها من باب الطائرة .. ونزلت اترنح بلا راس .. فلم اعتقد بعد ان اكون مقطوع الرقبة .. ولمحت عند نهاية السلم رجلا روسيا عاوى الوجه وقف يسطرنا .. والغريب انه يضحك .. ياخبر .. هذه اول ضحكة فى منتصف الليل وفى القطب الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة .. وقد ذكرتنى بضحكة اخرى تشرفت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو .. وهى قطعة من

الثلج المخلوط بالنبيذ وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر الا دقيقة لتقول لي : اريك يا اتب .. وهنا انخفضت درجة حرارتي الى عشرين تحت الصفر !

وفي داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئا جدا .. من اين اتوا بهذا الدفء .. وفي كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو انها اللعبة الوحيدة التي يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتآمر على الملك بصورة عسكرية صامته .

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاي . وكان الشاي جميلا . وحاولنا أن نشتري منها شيئا ولكنها اصرت على ان البيع بالعملات الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم ان نقول لها : انا ضيوف .. وعابرو سبيل — على الرغم من انه لم يكن هناك سبيل — ولكنها اصرت وبشدة ونهائيا . بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه ان هذا المطار مكان سياحي .. ؟

سياحي وفي القطب الشمالي ؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب الشمالي .. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا معزوله تماما عن امريكا اللاتينية . ولا سبيل الى الوصول اليها من امريكا التي تبعد عنها ٢٥٠ ميلا الا عن طريق اوروبا .. أي الا من طريق الوف الاميال .. فلابد ان يكون هذا المطار الصغير الدافىء الذي اقيم حديثا مكانا سياحيا هاما !

وقد تصورت ان الحصول على كوب من الشاي بعد ذلك امر مهم فشربت كوبا آخر .. وقد اعدت هذه السيدة كل شيء لاستقبالنا .. الشاي .. والشاي .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة وداع .. وعدنا الى الطائرة .. وحدث بالضبط ما حدث لي قبل ذلك .. عندما اخرجت راسي من باب المطار .. طارت راسي .. ومشيت هذه المسافة القصيرة على ارض جليدية لطيفة .. وبعد أن دخلت الطائرة .. لمست راسي فوجدته في مكانه .. وظل كذلك الى ان وصلت كوبا .. واعتقد انه بقي في مكانه .. وان كانت تصرفاتي تدل على ان خللا حدث فيه !..

في الطائرة وجدنا شيئا نتسلى به ..

ففي اوقات منتظمه تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من الطعام . وكنا نوقظ زملاءنا النائمين .. لكي .. يفطروا او يتغدوا .. او يتعشوا . نحن لانعرف فالدنيا ليل دائم ..

وفي اللحظة التي نجد امامنا الطعام ننظر من النافذة ، لانجد شيئا قد تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمسا ولا قمرا .. ولكن لابد ان هناك اشياء كثيرة تجري تحت السحاب لانعرفها .. ربما طلعت الشمس .. وتعطلت بهذه الطائرات القادمه من السحب .. لا احد يعرف ..

وعندما اشرقت الشمس اضيئت الانوار وقيل لنا : طعام العشاء ..

وسألت مضيفتنا بعض الكلمات الروسية القليلة التي عرفتها من القاهرة ودرستها في الطائرة فقيل انه العشاء .. نعم العشاء كما سمعتها . وامسح عيني وانظر من النافذة واشير الى قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء في موسكو الآن ..

العشاء في موسكو .. وبعد ساعته نتناول الافطار في كوبا .. جميله جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة !

⊙❖⊙

رقص وبن وثورة !

وبالقلم

من أمريكا اللاتينيــــه نهرب من الذهب والصور والالوان والاشجار والحلاوة والمرارة .. وكل الالوان الصارخه في كل شيء ..

والارض كما تبدو من الطائرة لونهـا أحمر .. وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك في آسيا .. في الهند وفي أندونيسيا والفلبين .. وفي استراليا أيضـا .. وهـذه الاشجار الاستوائية أعرفهـا .. وطعمها على لسـاني .. وذكرياتها حية في رأسي .. ومجرد رؤيه أشجار جوز الهند يخرجني من ملابسي .. ويردني الى أصلي .. انسان بدائي عريان .. أو انسان قريب الشبه من القرود .. أو قرد .. فقد تسلقت هـذه الاشجـار في جزر هاواي .. ونمت عليهـا .. وكنت أعرف عندما كنت على النوم .. ووجدت أنني على سرير فمددت ذراعي ومددت ساقي .. وغريزة البقاء وحدها هي التي جعلت يدي على الحبلة المتحـــة على سطح ماء المحيط الهادي .. ولو سقطت في الماء لغرقت .. لاني لا أعرف السباحة .. وقيل لي بعد ذلك أن الماء يبلع الترى .. وانه لولا ستر ربنا .. لكنت وكنت .. فالحمد لله على الستر ! ..

وهذه الرطوبة الشديدة في مطار كوبا اعرفهـا .. حسستهـا على قفاي في جاكرتا .. حيث الرطوبة تصل الى ٨٠ ٪ وأحيانا الى ١٠٠ ٪ .. وقد التصقت ملابسي من الرطوبة .. ولكن هنـا يوجد دفء .. ويوجد حرارة وحياة .. وهنا ناس .. سمر .. بيض .. رجال ونساء .. وينظرون ويتفرجون .. وهنا أعلام .. ونحن هنا عرسان .. وهذه زفة سياسية .. هنا ينعقد مؤتمر القارات الثلاث ، لادانة الاستعمار الامريكي الذي يريد أن يخنق كوبا .. وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلهـا .. وفيتنام .. وغيرها

وغيرها .. وكوبا هي هذه الدولة الصغيره التي تتحدى أكبر دولة في العالم وفي قلب أمريكا وعلى مدى ساعة من طائراتها .. ودقائق من صواريخها .. ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضي على حرية الانسان الصغير في أن يقول : لا .. وان تحمله كلمة «لا» أكبر من أي كبير . واستطاعت كوبا أن تقول لامريكا لا .. ولا تزال تقولها !

واحسست أني قريب من الارض .. فعلا .. هـذه أرض .. وليست سحابا ولا ضبابا .. وهذه سيارة واسعة سقفت .. وهذه اعلام .. وبيوت جميلة .. وشوارع واسعة .. وهـذه هي أول ارض رآها كولمبوس في سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند .. ووصف هذه الارض في مذكراته بأنها أجمل وأروع لون أحمر رآه في حياته .

وكوبا جزيرة بها شكل تمساح .. وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة .. ومساحتها مائة ألف كيلومتر مربع أي أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسره وبلجيكا .. وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ..

وأقرب الدول اليهـا هي هايتي – على مدى ٧٧ كيلومترا – وجامايكا على مدى ١٤٠ كيلومترا ..

وفلوريدا الامريكيـة على مدى ١٨٠ كيلومترا .. ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات صغيرة يزعمها بعض الركاب على الهبوط في كوبا تحت تهديد مسدس صغير .. وهذه هي أشهر اللعب التي يتسلى بها أهل كوبا هذه الايام !

وهناك نكتة أخرى هي أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف في مواجهـة العاصمة هافانا . خارج المياه الاقليمية .. منذ سنوات . تلتقط الاشـارات الداخلة والخارجة من كوبا .. والكوبيون يفقدون أعصابهم اذا اختفت هذه السفينة .. وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنهـا اختفت فتطل الناس من النوافذ ليتأكدوا .. وليتأكد الواقفون في الشارع أن هؤلاء يحرسون !

لم أشعر بغرابة في هافانا ..

هذه الارض كأني رأيتها . هؤلاء الناس كأني أعرفهم .. هذه الاشجار .. هذا الزحام .. تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ..

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذي تغير اسمه وأصبح « هافانا الحرة » — أي هافانا الحرة .. والعام ينطقونها هتا ناه ..

بعد أول مرة أنزل في فندق هيلتون في أي مكان في العالم .. والفندق كان مقفلا وفتحه الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية الأعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شيء في هافانا قد أعد لمعاملة السخية بأعضاء الوفود .. ففي استطاعتك أن تدخل أي مكان .. أي محل .. أي مسرح .. أي سينما .. كل شيء قد عد لك ويعرفك ويسطرك .. وكل الناس الذين حولك شبان .. لأن كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله في الكفاح شاب .. كان شابا .. والذين تراهم من الشبان والشابات تلاميذ في مدارس أو جامعات .. أو موظفون صغار .. كلهم جاءوا ليخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تصحح حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شيء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور ..

حتى عندما جلست مع الأديب الايطالى اليرتو مورافيا وزوجته الأديبة داتشيا ماريا ، والتقطت عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وارسلت وبسرعة ومع الشكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت الى البيت الذى كان يسكنه الأديب الأمريكى همنجواى رافقني أحد المصورين والتقطت ما أردت من الصور .. وطبعها وقدمها لي .. في غاية الدقة والرقة والسرعة .

وإذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهي أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمراعي في غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكان .. أن هافانا كانت مدينة الملذات .. فكل أمريكى غنى له شقة .. أو قصر .. وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقته أو يتجه الى صديقة .. ويقضي ساعتين أو ثلاثا في هافانا ثم يعود الى مكتبه في أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا ، خرسونيرة ، لأمريكا .. وسكر في يقال كل كوبا ..

فكوبا التي تبيع السكر كأنها مصابة بمرض السكر .. فهي لا تذوقه .. محرم عليها .. فالأمريكان يزرعونه ويقلعونه ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالأسعار التي تعجبهم والشعب الكوبي يتفرج على العلم الحديث الذي يحول القصب الى سكر يذوقه كل الناس إلا الذين يزرعونه .

والفحان يصنعه الأمريكان ويبيعونه في كل عواصم الدنيا .. والبن .. والأناناس .. وحور الهند .. كل شيء تحتكره أمريكا والشعب متهدم متململ . والحوبه على رؤوس الحكومات يساومون ويبيعون البلاد .. كل هذه الملايين الستة لا تملك من أمر بلادها شيئا ..

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية .

انها ثورة كاسترو فهي التي أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ الأمريكى في كوبا .. ولا تزال يهددها .. وبعد ذلك مؤتمر القارات الثلاث ليس إلا اتفاقا دوليا على تصدير الثورات الى الخارج .. وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليس إلا محاولة لتشجيع الثورات المحلية على أن يكون لها دور .. وإذا كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فان كوبا ما تزال نموذجا رائعا لصلابة الضعيف صاحب المبدأ في مواجهة القوى الغاشم

وكل شيء حلو في كوبا .. فهي بلاد السكر .. حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية .. انهم يخلطون البن بالسكر .. ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة .. هذا غير ممكن .. وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة .. والأناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البلاد الآسيوية .. وهنا البابايا التي تشبه الشمام وهي لذيذة الطعم .. والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو في السلال الأنيقة التي يضعونها كل يوم في الغرفة .. وهنا يشربون نوعا من « الروم » اسمه الباكاردى .. ويقال انه أحسن أنواع الخمور في العالم ..

والذي عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التي بذلها الشعب الكوبي من أجل نجاح هذا المؤتمر .. فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذي نجده .. انه يضحي به من أجلنا .. ولا كل

هذا الارز انه يعطينا ما زاد عن حاجته .. ولا كل هذه السجائر .. والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة في المكسيك .. ولا زجاجات الكوكا المصنوعة في اسبانيا .. ولا الولاعات الصغيرة المصنوعة في اليابان .. ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة في أوروبا .. ان الشعب الكوبي شعب مثالي .. أراد أن يضرب أحسن الامثلة لأسمى المبادىء .. مبادىء حق تقرير الشعوب لمصيرها .

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . فقد قرأت ان ولايات كوبية تعلن – بكل سعادة – تنازلها عن نصيبها من الارز لاعضاء الوفود – منتهى الايثار والتضحية . – .

وفي مايو سنة ١٩٦١ اعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة وبصورة قاطعة : انه ماركسي لينيني . وانه وشعبه سيتحملان نتيجة هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع . التي فرضتها امريكا عليه .. والحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري على الجزيرة الكوبية ..

وفي أكتوبر من العام التالي التقطت الطائرات الامريكية صورا لصواريخ سوفيتية في كوبا .. واعلن الرئيس جون كيندي فرض الحصار على كوبا والتفتيش الجوي لكل السفن الداخلة والخارجة منها .. ومنع دخول اي سلاح الى كوبا .. وكانت أزمة عالمية أدت الى أن يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا .. وكان شجاعة من كيندي أن يهدد .. وكانت حكمة من خروتشيف أن يسحب .. ولم تقع حرب عالمية ثالثة ..

ولا داعي لان يكون هنالك كل هذه الاسلحة في كوبا .. فامريكا لا تستطيع أن تهاجمها وان تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فامريكا لها مواقع حساسة .. أو أكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة السوفييت في اوروبا .. وفي آسيا .. وفي البحر الابيض .. ولا يمكن ان تغامر امريكا بغزو كوبا دون أن تتعرض لمواقف اكثر حرجا في اماكن أخرى من العالم . .

واحساس الكوبيين بانهم أمريكان لانهم يحاطون بكرههم انهم امريكان .. وكلمة امريكي اهانة لا تغتفر .. واغانيهم الصغيرة الحماسية تردد ذلك .. وتتوعد بذلك .. فهناك اغنية تقول : فيدل .. فيدل .. أكيد سوف يعطيهم علقة ..

فيدل – اي فيدل كاسترو .. واي مواطن ينادي كاسترو باسمه «فيديل» – من سوف يعطي الامريكان علقة .. وقد اعطاهم علقة لا نظير لها في التاريخ .. انه الصغير الذي وضع انف الكبير في الطين .. جعله سخريا من الاقدام .. وكوبا في أمريكا تشبه البانيا في اوروبا .. واسرائيل في الشرق الاوسط .. فهي جميعا ركائز قوية لروسيا والصين وامريكا ..

واذا كان الروس يرقصون التويست .. ويجدون في ذلك نوعا من المرونة وتوسيع الافق أو نوعا من الاعتراف بعالمية الفن ، فان الكوبيين لا يرقصون التويست .. وانما يرقصون رقصة مشابهة لها تماما اسمها : الموريخو .. وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبي زنجي اسمه بابلو الافريقي .. والكوبيون من أقدر الشعوب الامريكية على الرقص .. ومن أجمل المتع في الدنيا أن تتفرج عليهم وهم يرقصون رجالا ونساء .. ان الموسيقى هي دمهم .. والرقص هو نشاطهم اليومي .. حتى كاسترو .. فنحن عندما ذهبنا نودع سفير الصين الاسيوي الافريقي . وكان ذلك ليلا .. وكان الجو باردا في ذمة الحاكم .. وكان المطر ينزل علينا .. تماسكت الايدي .. وجعلنا نغني الاناشيد الكوبية الحماسية الصاخبة .. ونرقص رقصة الموريخو .. كل النساء والرجال .. وكاسترو .. مشدودا من ذراعيه الاثنين .. يرقص .. ويغني .. ويظل في نفس الوقت رشيقا ونشيطا .. اذا خطب اهتزت له الملايين .. وهو لا يخطب الا اربع ساعات واحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق وقوفا .. وكنا نستمع الى خطبه من رادوهات تترجم كلماته الى ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاسترو رجل بسيط .. في مظهره .. انه يرتدي الملابس العسكرية الخشنة والحذاء الخشن .. ويحمل سلاحه .. ولا يكف عن تدخين السيجار الكبير .. وهو كلكل لاتيني يحب الخمر .. ويدعو اليها كل صديق .. واي انسان هو صديق له ويسرعه .. ومن الطبيعي ان يكون معبودا للشباب .. وهو ايضا يحب الشباب أن يلتف حوله .. ولا عدد للعشيقات الصغيرات اللاتي يدون في فلك كاسترو .. وهو رجل اعزب بعد ان هجرته زوجته الى امريكا مع عشيق آخر .. ومن المؤكد ان هذه الاهانة التي لحقته شخصيا اعمق اثرا من انتصاره الهائل على امريكا .. انه انتصر على امريكا هذا واضح . ولكن انتصار شخص امريكي واحد عليه فلا اوجعه اكثر . !

وقد هربت أخته أيضا الى امريكا .. انها لاتريد ماتريد .. ولا يهمها ما يهمه .. انه قائد وهى فتاة عادية .. هو رجل غير عادى .. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية . وهى فتاة تريد ان تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لانها أخت كاسترو !..

والكوبيون هنا خليط من الاسبان ومن الزنوج الافريقيين الذين أتى بهم الاسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا بزرع الارض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك نجد فى كوبا اناسا بيضا وسمرا وزنوجا .. ولا توجد اية تفرقة لونية عندهم .. والزواج ممكن بين هذه الالوان .. او يحاولون ان يجعلوه ممكنا الى اقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزنوج الفقراء .. ونناقشهم وهم يتفرجون علينا نقول لهم : نحن افريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالافريقى عندهم هو الزنجى .. هو سحيق اللون .. اما نحن فافريقيون جغرافية فقط .. وكنا نقدرهم . فلا تزال حجتهم اقوى .. هم افريقيون حقيقة . ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الافريقية . ولايمكن ان يشعر الابيض بعذاب الاسود الذى يرزح تحت قلك ناررونهر محمد ونشرة فى لون الظلام وقضبان السجون !

ولا أعتقد انى رأيت فى حياتى يوما أجمل ولا أروع ولا أبسط من يوم الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم رأس السنة . ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية فى ميدان كبير .. الانوار والموسيقى .. والموائد ممدودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل انواع السجائر وعلى مدى متصديين منا يجلس كاسترو .. ونعبه الصبغة ذات الاحمرار الحقيقى لمع الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب نعبرها الى شبابنا .. وشرب فى صحة كل الشعوب .. والضباط والشعب الكوبى .. اما الشعب الكوبى فقد افترش الميدان .. ففى الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لاعدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الالوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. واهم من ذلك يرقصون ..

لقد رأيت عيد الثورة العربية فى باريس مرتين . . ومشيت فى الشوارع اراحم الناس .. ودخلت الى المقاهى اراحم الناس .. واتجهت الى المبادين اوسع لى مكانا .. وضحكت .. ورقصت ..

وملأت نفسى سماوة الفرحة الحرية .. وتعاهدت أن دوس السكارى على الارض .. وحرصت على الا التى نفسى بين اثنين يتعانقان .. والا اذوق ماما غير مائى وأن اضع المحداب فوق راسى عندما أعود الى فرانس حتى تخطف سماعة من النوم وسط الصرخات والقبلات والصافرات المحمومة فى العرف المجاورة وعلى السلالم وفى الاسانسير .. وتصورت يوم كنت فى باريس انه ليس روع من ١٤ يوليو فى باريس .. ولكن فى هافانا كان أروع وابسط وأجمل .. انت مع كل الناس . لا أحد يعرفك ولا انت تعرف احدا .. ولكن مد يدك الى اى انسان تعود بده معك .. مد ذراعيك وتمتلىء حضنك .. والشماريخ والقبلات تطير من كل مكان .. انت واحد من مليون .. والفرحة تتوزع بالعدل بين الناس .

والليلة اخرى فى مدينة سان دوينجو فى مقاطعة اورينت فى كوبا ايضا .. فى تلك الليلة أقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية .. بمكنك ان تقول ان الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. او يرقصون منذ ولدوا .. انها فى غاية الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هى رقصة الورمبيق . لم اتعلمها من احد . ولكن المرحوم الذى اسمه . جورجه بـ اى جورج فهم يتعلمون الجيم هذه يسر وبمكانه وسهولة وفى جمال .. سحيى .. اسحبت .. فرى اهتزوت تركى كلمة لها رمتك وطلب ارقص حتى ينهى الى ان الرقصة نميت وانه من الضرورى ان اغير .. تماما كأنى اسطوانة انتهت وبحاداراتها على الوجه الآخر .. واهتز امامى واهتززت امامه .. وتدخل بيننا عدد من الشباب .. وليس من الضرورى أن نرقص اذا كانت التى تقف امامك او وراءك فتاة .. ربما هى ترقص وتظاهر انت بالاعجاب بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس لان هذه اعظم تحية واكبر عذر يقبله اللاتين هنا . ان تعجب بفتاة .. وان تذهب فى اعجابك بها الى الخروج على التقاليد وعلى الذوق !

نمى شباب المتنبى فعل امير العشاق ذلك .. فدوى جوان الذى على نفسه جردلا من الماء القذر لكى يضحك معشوقته .. ولما ضحكت .. رفض أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذى اصاب فى نفس الرعب والدنيا .. انه مشغول بها فقط .. وهذه اعظم محبة !

والاديب الفاسى كثرابوفا عندما ذهب الى لقاء محبوبته فى بيتها وجدها مريضة . ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاما فاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. المغموسه ويجرجر الى جوارها .. ولم يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض . وجاءت لزيارته .. ولم تكد تراها حتى قفز من سريره دفعه واحده وكأنه عفريت خرج من قمقم .. وانهال على قدميها يقبلها .. وعندما نظر الى الارض ليعرف ما هذا الشيء الذي يلمع .. لم ينتبه الى ان هذا الذي سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذي سقط على الارض وزجاجات الدواء في يديه والمنظار تحت أقدام الجميع .. ولم يعتذر كارابوف .. فهذه المعشوقه لا عذر ولا اعتذار .. ولكن ان تكون هناك لتصبح كل شيء جائزا ..

وتصورت في لحظه انني اتفلسف وان الافكار التي تتوارد على راسي هي انطلاقات شاعريه .. ولكن عندما تعرفت الى جواري وجدتها عجوزا تساق واحدة .. وقد اصرت على ان ترقص .. واختارت شابا صغيرا .. وكانت اروع واسرع منه في الرقص .. ولما اندهشنا لذلك .. قالت العجوز : انني قد تصلبت ويبست في اماكن كثيرة من نفسي وجسمي .. ولم يبق لي الا الرقص .. !

وسالتني : هل ترقص ؟

قلت : لست استطيع .. ان الرقص معك يؤكد عجزي الذي لا حدود له ..

قالت : الشباب هو الذي يرقص .. عندما كنت شابه كنت ارقص طول الليل .. وقد استطعت في ليله ان اروج عشرة من الشبان . هم تعبوا وانا لم اتعب

قلت : وتستطيعين الليله ايضا

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيده .. وسعادتها تدل على ان المراة لاتتعب من المديح .

وقال لي احد خبراء الرقص الكوبي .. انه ليس من الضروري ان تكون استاذا في الرقص .. المهم ان تحرك قدميك فقط .. اعط اذنك للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل في جسمك .

واذوب هذه العباره في اذني على كل الاشكال الادبية والسياسيه والموسيقيه : اعط اذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !

واعطيت اذني للموسيقى الصارخة .. والطبول المدويه .. واعطيت عيني للالوان .. امواج من الالوان .. واعطيت انفي .. لا اظن انني اعطيت انفي .. فقد فقدته تماما .. فانا مصاب بزكام شديد .. واعطيت ذراعي واصابعي لكل ماحولي .. فانا احرك المقاعد واتساند على الحواجز الخشبية .. واعطيت فمي لكل الفواكه .. فانا مشغول لكل هذه العصابات من المشاعر .. انها تهزني .. وتهدني .. وتغسلني وتعصرني وتنشرني وتحمصني لتكون نفسي اكثر ثباتا ..

لقد تركت الاصوات والالوان تقوم بكل العمل ..

وعرفت النوم العميق .. واليقظة المطبقه ..

وسالت احدى المرافقات لنا : انت مخطوبه

فقالت : نعم .

قلت : لمن ؟

قالت : لموظف في وزارة الداخلية ..

قلت : ومتى تتزوجين ؟

قالت : قريبا

قلت : هل هناك صعوبات ؟

قالت : يعني .

قلت : افهم معنى كلمه يعني هذه .. لانها من الكلمات القليله التي تصادفني .. لان معناها ان هناك صعوبات ولا داعي لذكرها .. او لاداعي لان تعرفها .. او ماشانك انت يا مارد .

قالت : كل هذا الذي قلت ..

قلت : تقصدين انه لاداعي لان اسالك .

قالت : لا .. اسال .. وانا من الواجب ان اجيب !.

ولم اسال طبعا .. فقد سقطت مني عبارة «من الواجب ان اجيب» .. احسست فجأة انها موظفة تقوم بمهمة .. وانها مطالبة بان تكون لطيفة وظريفه .. والا تدلي بكثير من المعلومات .. او بعض المعلومات فكونها دولة حساسة .. ونتوقع ان يكون اي انسان عدوا لها .. مع ان الذي كنت اريد ان اعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية وكيف تغيرت .. وكيف اقابل بعض المسئولين عن تطوير الاسرة ..

وكيف انتقلت كوبا من الاحتلال الى التحرر .. أو كيف انتقلت من التحرر الامريكي الى التحرر الكوبي ايضـــا . . واين ذهبت هذه الالوف من بنات الليل .. وما الذي يفعله الكوبيون أنفسهم في هذه الكباريهات الكثيرة جدا الموجودة في هافانا واريد أن اعرف منها متى نهاية محنة الفتيات اللاتي يملأن الرور في الشوارع .. انها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « انه من الواجب ان تجيب .. » احسست أن هذه الاسئلة الشخصية فوق الواجب. وانها اذا كانت قد راعت الذوق في كل تصرفاتها . فلماذا لا افعل ذلك ؟ وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر .. وما أكثر السجائر وعلب الكبريت هنا .. ان أكثر اعضـــاء الوفود الذين غيروا عملاتهم في الســوق السوداء قد عادوا بالوف من علب السجائر الفخمة وعلب كبريت الشمع .. وسألتها

— طبعا من أصل اسباني ؟

فقالت : هه — أي نعم — وانت !!

قلت : مصري .. افريقي ..

قالت . هه — ومعناها : باه

قلت : لا تصدقيني !

قالت : هه — ومعناها : العكس غيرها !

قلت : احلف لك ..

قالت . هه — ومعناها : على ماذا ؟

قلت : اريد كتابا في اللغة الاسبانية ..

قلت : هه (مع هزة من كتفها ناحية اليسار .. الذي تصادف انه ناحية الباب الخارجي ولم يكن قصدها أن أخرج بسرعة) — ومعناها : لايوجد

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ماحدث .. وسألتني عن الفتاة وعن اوصافها .. ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : انها ملكة جمال هافانا .. وهي تتصور انها أجمل واحدة في كوبا وفي امريكا .. وان اي انسان يتحدث اليها فهو يعاكسها فقط .. وان كلمة « هه » من أهم الكلمات التي تستخدمها وهي معروفة بذلك ويسمونها هنا سينيوريتا « هه » ؟ ..

وسألتني : ما الذي كنت تريده منها ؟

قلت : كتابا في تعلم الاسبانية .

قالت : هه .. — ولم اعرف معنى هذه الكلمة ..

قلت : ماذا تقصدين ؟

قالت : هه — أي هذه حيلة .

قلت : والله انها حتى اسألي فلانا واشرت الى احد الزملاء ..

وضحكنا .. واندهشت جدا كيف انني وحدي الذي كنت ابحث عن كتاب وكل هؤلاء العشاق قد عرفوا بسرعة انها ملكة جمال ودخلوا يداعبونها .

وقلت للمترجمة . ولكني لا اراها جميلة

قالت : هه ومعناها : اطلع من دول ..

قلت : اقسم لك انها ليست جميلة .

قالت : اسمع !

وسمعت منها ماليس غريبا على عقلي .. فمن المألوف أن يذهب الناس في معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيظونها ويؤكدون لها انها لاجميلة ولا حاجة .. وهي محاولة لهز ثمار الشجرة .. أو لزعزعة ايمانها بنفسها . فقد تحب المرأة من يكرهها .. أو من يحتقرها او من يحتقرها .. أو من يزهد فيها .. او تطارد من يهرب منها .. تماما كما تهرب ممن يطاردها ..

ولم يكن هناك مجال للكلام .. فانا زائر عابر وانا عندي مايشغلني وهو كثير .. وانا عضو في اكثر من لجنة .. وعندنا تقارير وكتب .. وعندنا لقاءات مع ادباء واساتذة جامعة .. واعضاء الوفود .. وعندي موعد آخر مع البرتو مورافيا .. الذي تتأكد صداقتي له في كل مرة ألتقي به .. في ايطاليـا وفي القاهرة وفي المانيا .. وهنـا في كوبا ..

سألته : ما رأيك في كوبا ؟

قال : تجربه رائعه ..

قلت : هل تكتب مثلها ؟ ..

قال : اعتقد ذلك ..

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون دى بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا ..

قلت : وفرانسوار ساجان ايضا ؟

قال : واعجبك ما كتبته

قلت : لم يعجبنى من كل ماكتبته غير كتابها الاول . مرحبا أيها الحزن ..

قال : وانت ايضا رايك فيه هكذا .. ان زوجتى مع رايك .. اسالها ..

قلت لها : لم يعجبك من مؤلفات ساجان سوى قصتها الاولى ..

قالت : نصف هذه القصة .. وهى لم تضف جديدا لا فى النصف الثانى .. ولا فى بقية القصص الاخرى ..

***

ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقا للاعصاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحادة حول الرئاسة وعلى مكان مركزه الدائم .. وموقف الوفد الصينى .. والوفد السوفيتى .. والوفود الافريقية .. ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغات اوربية متعددة .. والى اللغة العربية ايضا .. فمثلا عن مندوب اليمن ان يلقى قصيدة طويلة .. وهذا الشاعر حتى الوجه احمر الصينى قصير القامة .. وذهب الى المنصة واخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقى قصيدته .. وامسك الحاضرون السماعات التى يستمعون منها الى الترجمة .. وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم .. واشتركوا فى ابتسامة غامضة .. ثم فى ضحكة عالية .. وراحوا يسالوننا عن هذا الذى يجرى امامهم ولا يفهمونه . ونحن لانجد مانقوله ؟ انه يلقى قصيدة .. ولا يمكن ترجمتها الى اية لغة .. لانها كلام فارغ اولا .. ولانها تتلاعب بالالفاظ .. ومن اهم الفاظها اللفظية كلمة : كوبا .. فالقصيدة تقول : جئنا الى كوبا .. ولم نشرب كوبا من الماء ، وانما شربنا

اكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام السايح الذى لايمكن ترجمته ولا داعى لذلك :

ولكن الناس يريدون ان يعرفوا .. ولم يعرفوا لان احدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ماقيل لهم : انه من اليمن ..

آه من اليمن .. اه كده .. وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. او مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم افهم فى كل ماقرات أو سمعت سببا لهذه العصبية .. وربما كان السبب هو ان الصينيين اذا راوا الروس احترقت اعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط ..

واذكر مرة واحدة انى لقيت احد اعضاء الوفد الصينى وحييته او حيانى ولم نقل شيئا . وضحك هو ولم نقل شيئا .. وعاتبنى احد الزملاء . كيف تفعل ذلك

قلت : وماذا فعلت ؟

قال : الم تسمع من الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح ،

قلت : لم اسمع ..

قال : لقد لعن المؤتمر من اوله لآخره ..

قلت : انى لا اراه قد لعننى بصفة خاصة .. ومع ذلك فما الذى قلته له .. او قاله لى .. لقد حيانى فى صمت .. وحييته فى صمت اكثر .. هو ضحك وهز راسه .. وانا لاضحكت ولا هززت راسى

قال : لكن كان عندك استعداد انك تكلمه ..

قلت : ولا يزال عندى استعداد لان اتكلم مع اى احد من كل الذين تراهم امامك ..

قال : يا عم انا ماليش دعوه .

قلت : هه .. محاولا ان اقلد الفتاة الكوبية بائعة السجائر ..

هه .. وانصرفنا .. كل الى حال سبيله .. ولم يكن لنا سبيل الا حول الفندق وفى المحلات الصينية التى تبيع الاحجار الكريمة وباسعار معتدلة .. خصوصا حجر التركواز وحجر الجاد العالى الثمن ..

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا .. من الغرب الى الشرق .. وفى الذهن تلك الصورة الجميلة العميقة .. وفى الفم طعم جوز الهند الذى شربناه .. والاناناس الذى التهمناه .. والسيجار التى تعلمت من كاسترو ان اضعها فى فنجان القهوة الى ان يلين احتضارها ثم تكسره باسنانها .. وعند امتلاء الحقائب بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السيجار وبالعقود والحواة الصينية والامتعة الحريرية .. ولا اظن انى رأيت الحقائب فى كوبا .. ولكن وجدت ستة ارواح منها فى حقيبة صديق سعودى كان ضمن المؤتمر .. وربما كانت هذه اول صورة للاحذية التى لبسها الانسان عندما اكتشفوا كوبا .. بعد ان اهداها اليها البحار الايطالى كولمبوس .. ولم استرح لوجود هذه الحقائب فى الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودى فى غرفته فى فندق اوكرانيا بموسكو ونحن فى طريق العودة الى القاهرة .

وفى غرفتى فى فندق أوكرانيا امسكت قلما وورقة وكتبت : « عزيزى الرئيس كاسترو » .

انها بداية تقليدية سخيفة ..

افضل منها : عزيزى فيديل كاسترو ..

او لاداعى لكلمة كاسترو هذه .. انهم ينادونه بكلمة فيديل ..

اذن اقول : عزيزى فيديل .. تذكر يوم رأس السنة يوم عيد ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا .. ونسمع الكثير من معاركك ونحن نتحدث عن كوبا . هل تذكر انك قدمت لى سيجارا كبيرا جدا .. اكبر من سيجار تشرشل .. انه سيجار كاسترو .. والقيت بما معى من سيجار فى الارض ــ احتقارا لشأنها .. وقلت لى بالحرف الواحد : ماذمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار ..

واعطيتنى سيجارا ضخما .

وقلت لك : واذا لم اكن مع كاسترو .

فقلت انت : يبعث لك كاسترو بالسجائر ..

وقلت انا : واذا لم يبعث كاسترو ..

وقلت انت : يبعث لك كاسترو بان تجىء لتدخن هذا السيجار معه ..

قلت انا : هذا افضل ..

ومددت يدك وصافحتنى .. وكانت عند المصافحة تعاقدا واتفاقا بيننا ..

والآن يا ايها العزيز فيديل : انى فى شوق الى سيجارك .. فما رأيك ؟ .. »

ومزقت الخطاب لان المعنى لايعجبنى .. ولا يريحنى .. ويكفى انى رأيت وسمعت وقرأت واستمتعت واحتفظت بذكريات جميلة حلوة . فالبلاد جميلة والشعب حار .. وليس السيجار وقصب السكر والاناناس الا اهون مافيها ..

فهرس الكتاب

	ص
• الى اى مكان	٣
• الكيمو ملا لوموبا	
وعبرت الى السرير	١٢
اى جمعه يا ولدي	٣٢
اهلا اصي ناشا	٤٢
• صنع في المانيا	
اكبر علبه لصوصه	٥٨
سبب في امريكا الحلطه	٦٦
• ايطاليا للمرة العسري	
سوفيا وأخواتها	٧٤
عشاي من العشاده	٨٧
• اكثر من سويسرا	
* حس ابه حرب	٩٨
* هذه النقطه الصاعله	١٠٦
• من الكافيار الى الاناناس وبالعكس	
* كش الملك دائما	١١٦
* رقص ومن ورورة	١٢٦

.. سهر الليل .. ليلاس ..
www lilas com/vb3